فيض الوهاب

فى بيان أهل الحق ومن ضل عن الصواب

بقلم

علامة عصره ووحيد دهره

الشيخ عبد ربه بن سليمان بن محمد بن سليمان

« الشهير بالقليوبى »

أحد علماء الأزهر الأعلام ، الخادم للسنة المطهرة
الذى تنتهى إليه أسانيد السنة جمعاء فى هذا العصر
والذى لم يسبقه أحـــد فى شرح جامع الأصـــول
لأحاديث الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم لابن الأثير



سنة ١٣٨١ هـ — ١٩٦٢ م

مطبعة مصر شركة مساهمة مصرية

الفصل الرابع

فى تعريف الصحابة والتابعين لهم ومن تبعهم إلى يوم الدين

قد عرفت مما تقدم أن سيد العالمين صلى الله تعالى عليه وسلم مع جميع من سبقه من اخوانه الأنبياء المرسلين للخلق أجمعين ، عرّفوا الله تعالى لعباده بآثار الصفات وبالأسماء سواء كانت أسماء الذات أو أسماء الصفات ، أو أسماء الأفعال ، ولم يذكروا شيئا عنه تعالى من صفات الحوادث التى جمح اليها كل ضال خارج عن اجماع المسلمين مما شبهوا الحق تبارك وتعالى من الصفات التى تشبه صفات الحوادث ، ودللوا عليها بما لم يعرفوا له معنى من الكتاب والسنة ، ولم ينظروا الى ما عليه اجماع المسلمين . وهاك سيد العالمين خاتم الأنبياء والمرسلين . وقد عرفت أن حضرته صلى الله تعالى عليه وسلم أعرف العارفين برب العالمين وقد سأله المشركون قالوا : يا محمد صف لنا ربك فنزلت السورة ، وفى رواية عند الامام أحمد والترمذى قال صلى الله تعالى عليه وسلم : « ان الله احتجب عن البصائر كما احتجب عن الابصار وان الملأ الأعلى يطلبونه كما تطلبونه » . وعن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم قال : « تفكروا فى الخلق ولا تفكروا فى الخالق » وفى الحلية لأبى نعيم عن ابن عباس رضى الله عنهما : تفكروا فى خلق الله ولا تفكروا فى الله . وفى أخرى : تفكروا فى الخلق ولا تفكروا فى الخالق فانكم لا تقدرون قدره . هذا بيان المشرع الشريف صلوات الله تعالى وسلامه عليه فهل رأيت ذكر شىء من الجوارح والأعضاء والمكان والحركة والسكون ، أم هو وفاق قول الحق جل وعلا ؟ بل بين للأمة الحذر والمنع عن الخوض فى معرفة الخالق جل وعلا ، الذى ليس له مثيل حتى

تتوصل من معرفة ذلك المثيل الى معرفة هذا العظيم الجليل ، وهو معنى قوله تعالى (ليس كمثله شيء وهو السميع البصير) .

وها هو الصديق رضى الله تعالى عنه فى تعريفه لرب العالمين وقد سئل بم عرفت ربك ؟ فقال : عرفت ربى بربى ولولا ربى ما عرفت ربى فقيل له : هل يتأتى لبشر أن يدركه ؟ فقال : العجز عن الادراك ادراك . وقد سئل أيضا رضى الله تعالى عنه وكان مريضا . هل دعوت طبيبا ؟ قال نعم دعوته فقيل له : ما قال لك ؟ قال انى فعال لما أريد .

ومن كلامه رضى الله عنه بلغت الناس الى ما هو جامع لجميع الطرق الموصلة الى معرفته تعالى ، عبـاد الله : ان الله تعالى قد ارتهن بحقه أنفسكم ، وأخذ على ذلك مواثيقكم ، واشترى منكم القليل الفانى بالكثير الباقى ، وهذا كتاب الله فيكم لا تفنى عجائبه ، ولا يطفأ نوره ، فصدقوا قوله ، وانتصحوا كتابه ، واستبصروا فيه ليوم الظلمة ، فانما خلقكم للعبـادة ، ووكل بكم الكرام الكاتبين ، يعلمون ما تفعلون ، واعلموا أنكم ما أخلصتم لله عز وجل فربكم أطعتم ، وحقكم حفظتم .

ومن كلماته رضى الله تعالى عنه لسيدنا عمر الفاروق رضى الله تعالى عنه : اتق الله يا عمر ، واعلم أن لله عز وجل عملا بالنهار لا يقبله بالليل ، وعملا بالليل لا يقبله بالنهار ، وأنه لا يقبل نافلة حتى تؤدى الفريضة ، وانما ثقلت موازين من ثقلت موازينه يوم القيامة باتباعهم الحق فى الدنيا ، وثقله عليهم ، وحقّ لميزان يوضع فيه الحق غدا أن يكون ثقيلا ، وانما خفت موازين من خفت موازينه يوم القيامة باتباعهم الباطل فى الدنيا ، وخفته عليهم ، وحقّ لميزان يوضع فيه الباطل غدا أن يكون خفيفا .

وها هو عمر بن الخطاب رضى الله عنه فى تعريفه لربه جل وعلا ، قال : لا يعرف الله الا الله فترك الادراك ادراك ، والبحث عن الذات اشراك . وقال رضى الله تعالى عنه وقد استقبله الناس وهو داخل الشام على بعيره ، فقالوا يا أمير المؤمنين : لو ركبت جوادا تلقاك عظماء الناس ووجوههم ؟ فقال عمر : لا أراكم هاهنا ، انما الأمر من هاهنا ، وأشار بيده الى السماء : خلوا سبيل جملى . أى الى الجهة التى تأتى منها الأوامر والنواهى بالوحى من صاحبها أى التى ليس لأحد أن يدعى فى شيء منها بالملكية ، بل هى له تعالى خاصة ، لا أن عمر رضى الله تعالى عنه يعتقد أن الله فى السماء كما فهمت الفرقة الواهمة فى حديث الجارية ، وضموه الى أفهامهم دليل لهم ، وهو عكس ذلك عليهم . وقد قال رضى الله عنه ان السماء لا تمطر ذهبا ولا فضة ، ومن خلصت نيته كفاه الله تعالى ما بينه وبين الناس ومن تزين للناس بغير ما يعلم الله من قلبه شانه الله عز وجل ، ومن كلماته رضى الله عنه ، جالسوا التوابين فانهم أرق شيء أفئدة ، ان لله عبادا يميتون الباطل بهجره ، ويحيون الحق بذكره ، رغبوا فرغبوا ، ورهبوا فرهبوا ، خافوا فلا يأمنون ، أبصروا من اليقين مالم يعاينون ، أخلصهم الخوف فكانوا يهجرون ما ينقطع عنهم لما يبقى لهم ، الحياة عليهم نعمة ، والموت لهم كرامة ، فزوجوا الحور العين ، وأخدموا الولدان المخلدين .

وها هو سيدنا عثمان بن عفان رضى الله تعالى عنه حين بُشر بالجنة على القتل فى آخر حياته قال : الله المستعان الحمد لله اسأل الله صبرا جميلا . وقد قال رضى الله عنه لمريض حين عاده : قل لا اله الا الله فقالها فقال : والذى نفسى بيده لقد رمى بها خطاياه فحطمها حطما فقال له من معه : أشيء تقوله أو شيء سمعته من رسول الله صلى الله تعالى عليه

وسلم ؟ فقال : بل سمعته من رسول الله صلى الله عليه وسلم . فقلنا يا رسول الله هذا هى للمريض ؟ فكيف هى للصحيح ؟ فقال : هى للصحيح أحطم .

ومن كلام زينة العارفين المنبىء عن حقائق التوحيد ، المشير الى لوامع علم التفريد ، فقأ عيون الفتن ، ووقى من فنون المحن ، ليث بنى غالب ، أمير المؤمنين على بن أبى طالب كرم الله تعالى وجهه وقد سئل بما عرفت ربك قال عرفته بما عرفنى به نفسه لا يدرك بالحواس ولا يقاس بالقياس ولا يشبه بالناس قريب فى بعده بعيد فى قربه فوق كل شيء ولا يقال تحته شيء وأمام كل شيء ولا يقال أمامه شيء وهو فى كل شيء لا كشيء فى شيء فسبحان من هو كذا ولا هكذا أحد سواه مشهور بالآيات منعوت بالصفات عدل لا يجور ولا يحيف تراه القلوب بحقائق الأنوار وتستدل علية بواضحات الآثار ، ويعرف نفوذ ارادته بنقض العزمات والتدبير ، ويعرف اتقان صنعته بحسن التصوير .

وقال رضى الله تعالى عنه وكرم الله تعالى وجهه وقد سأله بالكوفة أربعون يهوديا فقالوا : يا على صف لنا ربك هذا الذى فى السماء وكيف هو..؟ وكيف كان ومتى كان؟ وعلى أى شيء هو؟ فقال: معشر اليهود : اسمعوا منى ولا تبالوا أن تسألوا أحدا غيرى ان ربى عز وجل لم يبدو ممّا ولا ممازج معما ولا حال وهما ولا شبح يتقصى ، ولا محجوب فيحوى ، ولا كان بعد أن لم يكن فيقال حادث . بل جل أن يكيف المكيف للأشياء كيف كان ، بل لم يزل ولا يزول لاختلاف الأزمان ، ولا لتقلب شان بعد شان ، وكيف يوصف بالأشباح وكيف ينعت بالألسن الفصاح من لم يكن فى الأشياء فيقال بائن ولم يبن عنها فيقال بائن ، بل هو بلا كيفية وهو أقرب من حبل الوريد ، وأبعد فى الشبه من كل بعيد ،

لا يخفى عليه من عباده شخوص لحظة ولا كرور لفظة ، ولا ازلاف رقوة ولا انبساط خطوة فى غسق ليل داج ولا ادلاج ، لا يتغشى عليه القمر المنير ولا انبساط الشمس ذات النور بضوئهما فى الكرور ، ولا اقبال ليل مقبل ، ولا ادبار نهار مدبر الا وهو محيط بما يريد من تكوينه . فهو العالم بكل مكان وكل حين وأوان ، وكل نهاية ومدة والأمد الى الخلق مضروب ، والحد الى غيره منسوب لم يخلق الأشياء من أصول أولية ، ولا بأوائل كانت قبله بدية ، بل خلق ما خلق فأقام خلقه وصور ما صور فأحسن صورته ، توحد فى علوه فليس لشىء منه امتناع ولا له بطاعة شىء من خلقه انتفاع اجابته للداعين سريعة والملائكة فىالسموات والأرضين له مطيعة علمه بالأموات البائدين كعلمه بالأحياء المتقلبين ، وعلمه بما فى السموات العلى كعلمه بما فى الأرض السفلى ، وعلمه بكل شىء ، لا تحيره الأصوات ولا تشغله اللغات ، سميع للأصوات المختلفة بلا جوارح له مؤتلفة ، مدبر بصير ، عالم بالأمور ، حى قيوم ، سبحانه كلم موسى تكليما بلا جوارح ولا أدوات ولا شفة ولا لهوات سبحانه وتعالى عن تكييف الصفات من زعم أن الهنا محدود فقد جهل الخالق المعبود ، ومن ذكر أن الأماكن به تحيط ، لزمته الحيرة والتخليط بل هو المحيط بكل مكان فان كنت صادقا أيها المتكلف لوصف الرحمن بلا خلاف التنزيل والبرهان فصف لى جبريل وميكائيل واسرافيل هيهات أتعجز عن صفة مخلوق مثلك وتصف الخالق المعبود وأنت تدرك صفة رب الهيئة والأدوات . فكيف من لم تأخذه سنة ولا نوم له ما فى الأرضين والسموات وما بينهما وهو رب العرش العظيم ؟ .

هذا وقد سئل رضى الله تعالى عنه وكرم الله تعالى وجهه هل رأيت ربك ؟ فقال كيف أعبد ربا لم أره ؟ ومن الضرورى أن رؤية الله تعالى

لا تكون بالعيون وانما يرى تعالى بحقائق الايمان وقوة اليقين وهى لا تكون الا بمعرفته تعالى بالقدر الممكن للبشر اهـ .

ومن كلماته أيضا رضى الله تعالى عنه وكرم الله تعالى وجهه لو كشف عنى الحجاب ما ازددت يقينا ثم قال : البحث عن الذات اشراك ، والبحث عن الصفات ادراك . هذا وان ذكرنا عن كثير من الصحابة رضوان الله تعالى عليهم لضاق بنا المقام ولتوسع بنا فى هذا الميدان الكلام ولا بأس بأن نذكر نبذة عن التابعين والأئمة المجتهدين فيما روى فى تعريفهم لرب العالمين سبحانه وتعالى .

قال جعفر الصادق رضى الله تعالى عنه لبعض الزنادقة الذين ينكرون وجود الصانع جل وعز : هل ركبت البحر ؟ قال نعم . قال : هل رأيت أهواله ؟ قال بلى . هاجت يوما رياح هائلة فكسرت السفينة وغرقت الملاحين فتعلقت أنا ببعض ألواحها ثم ذهب عنى ذلك اللوح فاذا أنا مدفوع فى تلاطم الأمواج حتى دفعت الى الساحل فقال جعفر : قد كان اعتمادك من قبل على السفينة والملاح ، ثم على اللوح حتى تنجيك فلما ذهبت هذه الأشياء عنك هل أسلمت نفسك للهلاك ؟ أم كنت ترجو السلامة بعد ؟ قال : بل رجوت السلامة قال ممن كنت ترجوها ؟ فسكت الرجل فقال جعفر : ان الصانع هو الذى كنت ترجوه فى ذلك الوقت وهو الذى أنجاك من الغرق فأسلم الرجل على يده لعل سيدى جعفر الصادق راعى قوله تعالى (قل من ينجيكم من ظلمات البر والبحر تدعونه تضرعا وخفية لئن أنجانا من هذه لنكونن من الشاكرين قل الله ينجيكم منها ومن كل كرب ثم أنتم تشركون) .

وها هو الامام أبو حنيفة رضى الله تعالى عنه وكان سيفا مصلطا على الدهرية وكانوا ينتهزون الفرصة ليقتلوه فبينا هو يوما فى مسجده

قاعدا اذ هجم عليه جماعة بسيوف مسلولة وهموا بقتله وقالوا له اما آن تجيبنا على أن عالم الوجود فيه اله مدبر باجابة حاسمة والا مزقناك بسيوفنا فقال لهم رضى الله تعالى عنه : أجيبونى عن مسألة ثم افعلوا ما شئتم فقالوا له هات فقال : ما تقولون فى رجل صادق عندكم ؟ ويقول لكم : انى رأيت سفينة مشحونة من الأحمال مملوءة من الأثقال قد احتوشتها فى لجة البحر أمواج متلاطمة ورياح مختلفة وهى من بينها تجرى مستوية ليس بها ملاح يجريها ولا متعهد يدفعها . هل يجوز ذلك فى العقل السليم ؟ قالوا : لا هذا شيء لا يقبله العقل فقال أبو حنيفة : يا سبحان الله اذا لم يجز فى العقل السليم أن سفينة تجرى فى البحر مستوية من غير متعهد ولا ملاح فكيف يجوز قيام هذه الدنيا على اختلاف أحوالها وتغير أعمالها وسعة أطرافها وتباين أكنافها من غير صانع وحافظ ومدبر ؟ فبكوا جميعا وقالوا صدقت وأخمدوا السيوف وتابوا وأسلموا على يده . مراعيا قول الله تعالى (بيده ملكوت كل شيء) .

وسئل أبو حنيفة رضى الله تعالى عنه مرة أخرى عن الحق عز وجل فقال فى الدلالة عليه تبارك وتعالى ان الوالد يريد الذكر فيكون أنثى وبالعكس فدل ذلك على الصانع المعبود .

وقد سأل هرون الرشيد مالكا رضى الله تعالى عنه عن الصانع المعبود عز وجل فاستدل له باختلاف الأصوات وتردد النغمات وتفاوت اللغات فدل ذلك على مبدع الأرضين والسموات . ولعله رضى الله تعالى عنه راعى قول الحق عز وجل (ومن آياته خلق السموات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم ان فى ذلك لآيات للعالمين) .

وقد سئل الامام الشافعى رضى الله تعالى عنه : ما الدليل على وجود الصانع جل وعلا ؟ فقال ورقة الفرصاد طعمها ولونها وريحها وطبعها واحد عندكم قالوا : نعم . قال : فتأكلها دودة القز فيخرج منها

الابريسم . والنحل . فيخرج منها العسل . والشاة فيخرج منها البعر ويأكلها الظباء فتنعقد فى نوافجها المسك . فمن الذى جعل هذه الأشياء كذلك ؟ مع ان الطبع واحد فاستحسنوا منه ذلك وأسلموا على يده وهم سبعة عشر رجـــلا . فلعله رضى الله تعالى عنه راعى قول الله عز وجل (يدبر الأمر يفصل الآيات لعلكم بلقاء ربكم توقنون) وقد سئل سيدى أحمد بن حنبل رضى الله تعالى عنه فقال : أرى قلعة حصينة ملساء لا فرجة فيها ، ظاهرها كالفضة المذابة ، وباطنها كالذهب الابريز ، ثم انشقت الجدران وخرج من القلعة حيوان سميع بصير فهذا دليل من الفاعل القدير : عنى بالقلعة البيضة وبالحيوان الفرخ . فلعله رضى الله تعالى عنه راعى قول الله تعالى (يخرج الحى من الميت ويخرج الميت من الحى) هذا وقد نقل عن الامام أبى حنيفة رضى الله تعالى عنه فى مسنده ، والامام مالك رضى الله عنه فى موطئه ، والامـــام الشافعى رضى الله تعالى عنه فى مسنده ، والامام أحمد بن حنبل رضى الله تعالى عنه فى مسنده . ان جميع ما ورد فى القرآن العزيز من صفات البارى عز وجل التى تشبه صفات الحوادث ، فهى صفات له تعالى قديمات لا يعلم حقيقتها الا هو ، وانما عنى بها عز وجل تقريبا للعقول البشرية ، أى لقرب فهم المعانى التى أسندت اليها كقوله تعالى (والسماء بنيناها بأيد) (فاصبر فانك بأعيننا) (اليه يصعد الكلم الطيب) (انى متوفيك ورافعك الى) (ءأمنتم من فى السماء) (الرحمن على العرش استوى) (وجاء ربك والملك صفا) وفى الحديث « ينزل ربنا الى سماء الدنيا » وفى الحديث : « يضع الحق قدمه فيها . فتقول : قط قط » . عند قوله تعالى (يوم نقول لجهنم هل امتلأت فتقول : هل من مزيد) وغير ذلك على ما بينا وسنبين ان شاء الله تعالى .

هذه هى معرفة الله تعالى لعباده العارفين الذين عرفوه بها بالبراهين العقلية والنقلية ، لا كما يقول كل خارج عن اجماع المسلمين أننا نفهم القرآن على ظاهره ، ولا نتأول فيه ، ولا نقول بالمجاز فيه ، مع أنه يصدمهم صريح الكثير من آى القرآن الكريم كقوله تعالى : (ومن كان فى هذه أعمى فهو فى الآخرة أعمى وأضل سبيلا) وكقوله تعالى : (كل شىء هالك الا وجهه) ولست أدرى كيف يعرفون ذات الحق عز وجل التى لم يجرأ أحد من الأنبياء المرسلين ، ومن أتباعهم المؤمنين على ذلك بقولهم : (الرحمن على العرش استوى) ويعنون باستوى : استقر . ومن المعلوم أن العرش مخلوق ، وكل مخلوق له أول وله آخر ، والله تعالى منزه عن الأول والآخر ، فكيف يكون العظيم الجليل ، فوق العرش الحقير بالنسبة له تعالى ، وقد قال عز من قائل : (ان الله لغنى عن العالمين) فكيف باحتياجه الى العرش واستقراره عليه ، وكذا يقولون فى قوله تعالى (ءأمنتم من فى السماء) ان الله تعالى فى السماء ، ومن المعلوم أن السماء مخلوقة ، وكل مخلوق محدود الأول والآخر . فكيف يكون الله تعالى فيه ؟ بعد قوله تعالى (هو الأول والآخر والظاهر والباطن) والنبى صلى الله عليه وسلم فسر الأول : الذى ليس قبله شىء . والآخر : الذى ليس بعده شىء . والظاهر : الذى ليس فوقه شىء . والباطن : الذى ليس تحته شىء . فهموا على ما قرر العلامة القرطبى مشككة ينفون ويثبتون ، يقولون له تعالى صفة الجارحة ، ويقولون ولكن لا نعلمها ؟ ولست أدرى كيف يقولون نأخذ بظاهر القرآن ، وهم يقولون فى قوله تعالى (وهو معكم) أى بعلمه ؟ من أنى لهم ذلك التأويل وهم ملتزمون الظاهر ، نسأل الله تعالى العفو والعافية من عقائد الزائفين الخارجين عن اجماع المسلمين .

ولما لم تكن معرفة الله تعالى على حالة واحدة ، بل بحسب ما شرعه تبارك وتعالى لعباده من أنواع الطرق الدالة عليه ، والسبل الموصلة اليه ، فكان ذلك بحسب استعداد كل ناظر وعلى قدر مواهبه ، وسعة مداركه ، ولذا قسم مقام المعرفة الى أقسام : معرفة العوام . ومعرفة الخواص . ومعرفة خواص الخواص .

وهذا أخذا من كلام العزيز الحميد العالم باستعداد عباده قال تعالى (ادع الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتى هى أحسن) فكان هذا على ثلاثة أقسام . وأيضا لوجود النسبة بينهما وهى قسم ثالث بين كل موجود مثلا : موجد وموجود والنسبة بينهما الوجود خالق ومخلوق والنسبة بينهما الخلق . رازق ومرزوق والنسبة بينهما الرزق وهكذا على ما نبينه ان شاء الله تعالى .

فأما معرفة العوام لله تعالى فهى معرفة اجمالية الأدلة كمعرفتهم ان لهذا العالم خالقا موجودا وتلك مفرقة بالمثل الأعلى وقد رضيه الله تعالى معرفة لهؤلاء ، وشرعها فى كلامه العزيز حيث قال تعالى (وهو الذى يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه وله المثل الأعلى فى السموات والأرض وهو العزيز الحكيم) واليه يشير الصادق المصدوق صلى الله عليه وسلم فى الحديث : « الاحسان أن تعبد الله كأنك تراه » فقد فتح لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم التخيل بالمثل الأعلى (وهو المراد فى قوله تعالى : (ليس كمثله شيء وهو السميع البصير) والمثل والمثل والمثال كلها بمعنى فى اللغة . وقد سئل الأعرابى عن معرفة الله تعالى فقال : سماء تظلنا وأرض تقلنا والمشية تدل على المسير والبعرة تدل على البعير أليس ذلك دليلا على اللطيف الخبير ؟ وسئل آخر فقال : الصنعة تدل على الصانع وهذا العالم بديع فلابد له من مبدع . وسئل

آخر : كيف عرفت ربك ؟ قال : يخرج الجنين مصورا على صورة غير مرادة لأبويه ، فعلمت أنه ليس من طبع ولا نجم .

وأما معرفة الخواص : فهى معرفة النظر وتلك عرفت من حكمة ارسال الله تعالى الرسل مبشرين ومنذرين ، الذين أرشدوا العالم وبينوا لهم ما غاب عنهم ، والمرشد طبعا يجب عليه أن يبين الحقائق بأصرح عبارة وأوضحها ، والا لما كان للارشاد فائدة . فوجب علينا أن نأخذ كلماتهم على ما تدل عليه ، قال تعالى : (وما أتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا) . وقال تعالى : (لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة) وقد عرفوه سبحانه وتعالى لعباده بجميع ما جاء بالقرآن الكريم من أسماء الذات وأسماء الجمال وأسماء الجلال وأسماء الصفات وأسماء الأفعال مع لفت أنظار المرشدين الى أنه تعالى له صفة المخالفة للحوادث المأخوذة من قوله تعالى (ليس كمثله شىء) وأن جميع ما جاء فى القرآن مما يوهم من صفات وأفعال الحوادث كقوله تعالى : (والسماء بنيناها بأيد) الى آخر الآيات المتقدمة التى ضرب الله تعالى بها الأمثال تقريبية للعقول البشرية لكى يتوصلوا بها الى فهم الحقائق الكلية ، اذ المثل جزئى من الكلام يذكر لتوضيح القاعدة ، مع العلم بأن الممثل به اما أن يكون معلوما للمخاطبين ، أو محسوسا لهم ، مما جرت به العادة ، ألا ترى الى قوله تعالى فى وصف فرش الجنة (متكئين على فرش بطائنها من استبرق) فوصف تعالى (البطائن) ولم يصف ظاهره لأن البطائن نوعها موجود فى الدنيا معلوم للمخاطبين ، واذا كانت البطائن من أعلى حرير فى الدنيا ، فكيف ظاهر الفرش ؟ ولما لم يوجد تعالى مثله فى الدنيا ، لم يمثل به جل وعلا ، وهكذا فى كل ما مثل الحق به سبحانه وتعالى كما فى قوله تعالى (مثل نوره كمشكاة) الآية

(ان الله لا يستحى أن يضرب مثلا ما بعوضة فما فوقها) وما كانت الأمثال الا لتقريب المعانى للعقول البشرية التى لا تتعقل المعانى الا بها ، وكيف تتحد أو تتفق هذه الصفات التى ضرب الحق عز وجل بها الأمثال مع كماله ، على أن صفة المخالفة للحوادث تدل على أن ما يوصف به تعالى يخالف ما توصف هى به ، اذن فقد بان لك أن الحكمة فى تعريف الحق عز وجل عباده ذاته بالصفات بأنه لا يمكن الوقوف على استحضار الذات الا باستجماع الصفات ، مع العلم بأن مغايرة الصفات لذاتها لا تعقل الا بمغايرة المفهوم ، أما المغايرة بالماصدق فهى مستحيلة لاستلزامها تعدد الواجب ذاتا وهو محال .

فقولهم لا هو ولا غيره ، ان ها هو وغيره باعتبارين مختلفين أى غير باعتبار المفهوم ، عين باعتبار الماصدق .

على أن مبحث زيادة الصفات على الذات لا يتعلق به اعتقاد ، هذا وقد تقدم لك أن من خيرة خواص العارفين الذين نطقوا ببيان معرفته تعالى من الأنبياء والمرسلين والصحابة والتابعين والأئمة المجتهدين والعلماء العاملين وكبار المؤلفين للتوحيد والمفسرين وشارحى سنة سيد المرسلين من الجهابذة السابقين والمتأخرين الذى أثبتوا له تعالى كل كمال ، وقالوا باستحالة كل نقص عليه تعالى .

ومن أنقص عقلا ممن يجعل الصانع المبدع الذى له العزة والجبروت كخلقه من الحوادث ، كقولهم على العرش ، أو فى السماء أو يأويه زمان أو مكان ، أو له كذا وكذا من صفات الحوادث ، تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا ، وسنبين ان شاء الله تعالى معنى : أين ومتى وكيف وما ، وانهم لا يطلقون فى الاستفهام على الله بأنه تعالى منزه عن معانيهم ولا يطلقون الا على الحوادث فى الاستفهام .

وأما معرفة خواص الخواص فهم قوم خلقهم الله تعالى على المعرفة به جل وعلا ، فهى ضرورية لهم لأنهم خلقوا لها وبها عرفوا كل شيء وبها تنزلت معارفهم للمحدثات . وان تشأ فقل : هم يعرفون الله تعالى بالفطرة التى فطر الله الناس عليها ، غير أنهم لم يؤثر عليهم شوائب التغيير والتبديل ، بل دائما هم فى ترقى المعرفة . وهؤلاء هم الأنبياء والمرسلون ومن على قدمهم ممن حدث عنهم الصادق المصدوق صلى الله تعالى عليه وسلم فى حديث مبرى جريج ، وشاهد يوسف وولد ماشطة ابنة فرعون والمرأة التى مر عليها الفارس والأئمة ، ومبارك اليمامة ، وغير ذلك كثير مما هو مثبت فى السنة ، والغلام الذى اشترط عليه معلمه أن يذبح الحمامة ولا يراه أحدا ، فلم يستطع ذبحها فلامه معلمه فقال : يا سيدى لقد اشترطت على أن لا يرانى أحد وكلما دخلت كنا أجد الله تعالى مطلع علىّ ، فعرفه أنه خلق على المشاهدة ، فمثل هؤلاء تراهم دائما فى شهود واستغراق ، مع مخالطتهم لشواغل الدنيا ، فلم تشغلهم عن مشاهدة الذات ، لا يشاهدون الا هى ومعاملاتهم لهم الضرورية ولا ينطقون فى الأشياء بكلام الا للضروريات ، ويزاولون كذلك فى كل أمر يليق بهم مع عباد الله ، ولم يخل الحق عز وجل منهم بقاع الأرض فى كل لحظة وآن ، واذا أراد الله تعالى بأهل الأرض عذابا ، نظر اليهم فصرف العذاب عنهم ، كما جاء فى الحديث المروى فى خصائص أبى هريرة رضى الله تعالى عنه من قوله صلى الله عليه وسلم : « عليك يا أبا هريرة بطريق أقوام اذا فزع الناس لم يفزعوا ، واذا طلب الناس الأمان من النار لم يخافوا الى أن قال : ركب القوم طريقا صعبا حتى لحقوا بدرجة الأنبياء ، آثروا الجوع بعدما أشبعهم الله ، والعرى بعدما كساهم الله ، والعطش بعد ما أرواهم الله ، تركوا ذلك رجاء ما عند الله ، تركوا الحلال

مخافة حسابهم ، صحبوا الدنيا بأبدانهم ، ولم يشتغلوا بشيء منها عجبت الملائكة والأنبيـاء من طاعتهم لربهم ، طوبى لهـم طوبى لهـم وددت أن جمع الله بيني وبينهم ثم بكى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم شوقا اليهم ثم قال « اذا اراد الله بأهل الأرض عذابا فنظر اليهم صرف العذاب عنهم فعليك يا أبا هريرة بطريقتهم فمن خالف طريقتهم تعب فى شدة الحساب » .

ولا نظن أن مثل هؤلاء أخص فى المعرفة من الأنبياء والمرسلين مع تكوينهم على المعرفة وقد خصوا بالجمع بينها وبين الارشاد للعباد للبيان والتكاليف الشرعيةالتىلا يتم نظام العالم الا بها ، والسير علىقواعدها، والنظم الدالة عليها ، لضرورة بنى البشر اليها ، اذ لا يحل الوفاقمحل الشقاق الا بها .

ومن هنا نعرف أن المجذوب أى المأخوذ فى الله الذى جذبه الله تعالى اليه يكون على هذا الوضع ، مباشرا لما هو مشاهد ، مخالطا لأهل الدنيا فى أحوال الدنيا ، فيكون جامعا بين الضدين وهو الكمال الانسانى كالأنبياء المرسلين وقليل ماهم ، فمثل هؤلاء لا يحجبون عن اللطائف الربانية من العوالم الروحانية ، ولا يخفى عليك ان الله القادر المنوع فى التكوين للموجودات ، لم يجعلهم على حالة واحـدة ، بل منهم من لايشاهد الا العوالم الملكية ، وهى العوالم السفلية ، من الجماد والنبات والحيوان ، فتجده دائما مستغرقا فى مشاهدة هذه الآثار لصفات الحق جل وعلا ، فيها من التغييرات والانتقالات والتصورات والادراكات من الحركات والسكنات ، فى الأمور المتقابلات ، والمتضادات ، ومنهم من يشاهد هذه وهى عنده بديهية ضرورية ، ولا يستغرق الا فى مشاهدات

العوالم الملكوتية ، وما فيها من الأجرام الأفلاكية ، وما أحيطت به من العجائب الربانية ، وخاصة أنواع الملائكة الروحانية ، وغير ذلك من العجائب الالهية ، ومنهم من عنده هذه وهذه بديهية ضرورية ، وما هو الا فى المقام الأسمى ، والقرب الأعلى ، والدنو الأجلى ، وهو مشاهدة الحق جل وعلا وهى اللذة التى ليست بعدها لذة ، والحظوة التى ليست بعدها حظوة ، وهى غاية الغايات ، وأقصى أعلى الدرجات .

ومن هنا تعلم أن مقام القرب والجذب ، ليس على حالة واحدة ، ولا يحظى بها كل مخلوق ، بل هو بمحض فضل الله وكرمه لبعض عباده ، ولا ينكرها الا كل من قصر عقله عن ادراكها ، وقعد به الكسل والانحطاط عن البحث فى حقائق الدين من الكتاب المبين ، وبيان سيد المرسلين .

فان قال قائل ممن هم بعيدون عن ذلك : كيف يكون حال هذا المستغرق المشاهد المختلط بالأمور الآتية ، عند قضاء الحاجة ، ومع النساء ، والطعام والشراب ، أين تكون تلك المشاهدة ؟ !

نقول : ان ما ذكرت من الأحوال البشرية وجريانها على المأخوذ المجذوب المشاهد ، ماهى الا كالطبيعة البشرية فى تنقل الأفكار فى الأذهان ، وجريانها على النفس ، وتقلبها من حالة الى حالة ، فهل تنقل الأفكار وتشتتها من أفق الى أفق ومن حيز الى حيز يخرج الشخص عن طبيعته ؟

وحالته التى يكون بها ، مع من يراه ، أو تغير طبعه معها ؟ كلا ، (صنع الله الذى أتقن كل شىء انه خبير بما تفعلون) ومن هنا من يتم تكوينه على الفطرة الالهية ، والصنعة الربانية ، ألا ترى ماورد عن

سيدنا ابراهيم عليه السلام ، وما كان من أمر ولادته ، وكان قد أمر النمروذ بقتل جميع الأولاد الذكور فى هذا العام ، وبعد الرجال عن النساء ، وشاء الله تعالى ولادته فى هذا العام ، وقد وضعته أمه فى غار وكانت تغدو وتروح عليه ، فلما نطق بالكلام قال لها : من خلقك ؟ فعجزت وخافت منه ، وعجبت من أمره فأرسلت له أبوه ، وأخبرته الخبر ، فلما رآه سأله قائلا : من خلقك ؟ فقال : النمروذ فقال : ومن خلق النمروذ ؟ فسكت وتعجب !! ثم ذهب اليها قائلا : سيكون له شأن، وربما هو المخوف منه ، وكتم أمره حتى أظهر الله تعالى أمره ، وهكذا سيدنا موسى عليه السلام ، وقد نطق لأمه بتوحيد الله عز وجل لآثار الصفات . وناهيك بسيدنا عيسى عليه السلام ، ولا يفوتك ماثبت فى السنة ، وما صدر من سيد العالمين عند نزوله من بطن أمه ، وما حدث به عمه أبو طالب لأخيه حمزة بقوله : هل رأيت يا أخى أن ألفاظا تصدر من محمد لم يكن لنا بها عهد من قبل ؟ اذا وضع يده فى الطعام يقول : باسم الأحد ، واذا شبع يقول : الحمد لله .

هذا تعريف العارفين فى صغرهم وكبرهم لرب العالمين . هل رأيت أحدا منهم يقول بذات الحق عز وجــل ، أو بجوارحه ، أو المكان أو الزمان له تعالى عن ذلك علوا كبيرا . ومن أنعم النظر وتأمل بعين الفكر ، وجد أن الطفل الرضيع له فى بكائه فى الأربعة أشهر الأولى يبكى بدون دموع ، وهو يذكر الله عز وجل ، (فطرة الله التى فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون) ويقول الصادق المصدوق صلى الله تعالى عليه وسلم : « ما من مولود يولد الا ويولد على الفطرة فأبواه يمجسانه أو يهودانه أو ينصرانه » :

والله تعالى ولى التوفيق وهو حسبنا ونعم الوكيل .

الباب الرابع

فى الرد عليهم فى الشبهة الثانية فى معرفة سيد العالمين وفيه فصول

الفصل الأول

فى ادعائهم أن حضرته صلى الله تعالى عليه وسلم بشر كالبشر العادى ، لا فرق بينه وبين غيره ولا ينفع غـيره ولا نفسه . نقول : غير خاف على ذوى العقول الذكية ممن لهم أدنى مزاولة للعلوم ، ومن لهم أدنى اطلاع أن عداوة المخالفين لأهل الحق ثابتة بالكتاب والسنة واضحة من أقوالهم فى المحاضرات والدروس ، جلية فى مؤلفـاتهم واسترسالهم فى ذلك بقولهم ، ان النبى لا ينفع أحدا من الخلق ولا ينفع نفسه ، ولقد سمعتها من أحدهم لمن كان يناقشه ، ولقد هم بضربه فمنعته دفعا للشر واخمادا للفتنة ، وقلت له ان هؤلاء الخارجين عن اجماع المسلمين هم من سلالة المنافقين الذين كانوا فى زمن حضرته صلى الله تعالى عليه وسلم ومصدر الخوارج الذين ظهروا فى زمن الصحابة ، وقتلهم أمير المؤمنين على بن أبى طالب رضى الله تعالى عنه وكرم الله تعالى وجهه ، فهم من مصداق قوله صلى الله تعالى عليه وسلم « ليخرجن من ضئضىء هذا من يكون مع المسيخ الدجال » كما بينا ذلك ، اذ لا يخفى على كل عاقل أن عداوة سيد العالمين صلى الله تعالى عليه وسلم لم تنشأ الا من صنفين من بنى آدم . أحدهما : الكافرون ومن على شاكلتهم وثانيهما — المنافقون ومن على شاكلتهم — ومنشأ تلك العداوة —

الحسد — ومصدره جحود بنعم الله تعالى على عباده ، واختصاص بعضهم بالمميزات التى مرجعها الى معرفته جل وعلا ، ولذا طالما قررنا كثيرا ان كل من ضل فى معرفة الله تعالى فقد ضل فى معرفة كل شيء من أسراره فى مكوناته .

فأما الكافرون : فقد نعتهم تبارك وتعالى فى كتابه العزيز بأنهم يعرفون حضرته صلى الله تعالى عليه وسلم كما يعرفون أبناءهم ، وذلك من بيانه سبحانه وتعالى لهم فى كتبهم المقدسة على يد أنبيائهم ورسلهم مع تبيينهم صلوات الله تعالى وسلامه عليهم أجمعين بألسنتهم لمجيئه صلى الله تعالى عليه وسلم مصدقا لما معهم قال تعالى (الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم وان فريقا منهم ليكتمون الحق وهم يعلمون) ومن شدة ثقتهم بمجيئه صلى الله تعالى عليه وسلم قال تعالى (وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به فلعنة الله على الكافرين) ولقد كان كفار قريش يقولون لئن ظهر النبى المنتظر وكان منا لسدنا الأمم . فأخبرنا الله عز وجل عنهم بقوله تعالى (وأقسموا بالله جهد أيمانهم لئن جاءهم نذير ليكونن أهدى من احدى الأمم فلما جاءهم نذير ما زادهم الا نفورا استكبارا فى الأرض ومكر السيء ولا يحيق المكر السيء الا بأهله) ثم قال تعالى مسليا لخاطره الشريف مخففا عن حضرته صلى الله تعالى عليه وسلم عبء ما هو حامله لعدم اجابتهم لدعوته خوفا من حضرته عليهم وشفقة وحرصا ورحمة بهم مما يلحقهم من غضب الله تعالى عليهم المفضى بهم الى النار (ولئن أتيت الذين أوتوا الكتاب بكل آية ما تبعوا قبلتك وما أنت بتابع قبلتهم وما بعضهم بتابع قبلة بعض) الآية ومن شدة حرصه صلى الله تعالى عليه وسلم على ذلك قال له عز وجل (وما أرسلنا

من قبلك من رسول ولا نبى الا اذا تمنى ألقى الشيطان فى أمنيته فينسخ الله ما يلقى الشيطان ثم يحكم الله آياته والله عليم حكيم ليجعل ما يلقى الشيطان فتنة للذين فى قلوبهم مرض والقاسية قلوبهم وان الظالمين لفى شقاق بعيد وليعلم الذين أوتوا العلم أنه الحق من ربك فيؤمنوا به فتخبت له قلوبهم وان الله لهادى الذين آمنوا الى صراط مستقيم) ومع هذا لم يأل جهدا صلى الله تعالى عليه وسلم فى ابداء النصح وتسهيل طرق الرشد والترغيب فيما يرجى نيله عند الله الكريم الرحمن لعل ذلك يدعو الى كثرة الراغبين المجيبين لدعوته ، لأن الله تعالى جعله على ما وصفه بالرؤف الرحيم والخلق العظيم ولا يكون كذلك الا من لا ييأس ولا يقنط من رحمة الله تعالى ، كيف لا وهو صلى الله تعالى عليه وسلم أعلم من كل من يعلم بقوله جل وعلا « رحمتى غلبت غضبى » ولما كان كذلك سبحانه كان الطمع فيما لديه أرجا والرغبة فيما عنده أوسع ، ومع هذا كان الكفار البعيدون عن مخالطته صلى الله تعالى عليه وسلم الذين لم يجالسوه ولم يروا شيئا مما خصه به تعالى فى مزيد الانعام الا سماعا لم يدعو بابا من أبواب الشر ضده الا طرقوه ، ولا مسلكا من مسالك الأذى نحوه الا عبروه ، فلقد رموه صلى الله تعالى عليه وسلم بالسفه ، والجنون ، والسحر ، والمكر ، والخديعة ، حتى قالوا فيما يوحى اليه من لدن العزيز العليم ، أساطير الأولين ، شعر شاعر ، وحى الشياطين ، يمليه عليه الأعجمى الاسكافى ، سحر يؤثر ، ان هذا الا قول البشر وخاصة فيما كان عليه صلى الله تعالى عليه وسلم من الحلم والأناة وهى عدم الاجابة بسرعة بدون روية ، كما عوده ربه تبارك وتعالى بالرد عنه ، كما هى أخص خصائصه الشريفة صلى الله تعالى عليه وسلم دون اخوانه الأنبياء المرسلين قالوا ما ذلك الا لعدم تثبته من

الأمر ، وهذا من الدهاء والمكر ، وفى صرفه السائل الى ما يليق به وما فيه المصلحة ، مثل قوله تعالى (يسألونك عن الأهلة قل هى مواقيت للناس والحج) . يقولون هذا تخلص وفرار وهروب من السؤال . كقول فرعون لمن حوله بعد سؤاله لسيدنا موسى عليه السلام عن حقيقة رب العالمين ، فأجابه عليه السلام بآثار الصفات (رب السموات والأرض وما بينهما ان كنتم موقنين) قال لمن حوله متهكما برسول رب العالمين (ألا تستمعون) يعنى أسأله عن حقيقة رب العالمين فيجيب بهذا الجواب البعيد عن حقيقة رب العالمين ، ظنا من المغفل الجهول أن حقيقة رب العالمين تدرك ، فلفت عليه السلام نظره لما هو أقرب اليه من آثار صفاته تبارك وتعالى فقال (ربكم ورب آبائكم الأولين) ولما أن كان موسى عليه السلام قد ضربه بكلمة شقت عليه المجلس نصفين بقوله (وتلك نعمة تمنها علىّ أن عبدت بنى اسرائيل) . وكانت هذه سببا فى لفت نظر بنى اسرائيل الى شأنهم معه ومكانتهم عنده ، أراد الجهول بربه أن يوهن دعواه ويكذب فحواه فقال لمن كان تنبه فى مجلسه من كلمة موسى عليه السلام وعرف مغزاها من بنى اسرائيل (ان رسولكم الذى أرسل اليكم لمجنون) فغضب موسى عليه السلام قائلا ما هو أشد ووجه نظرهم الى دلائل معرفته تعالى ومن لم يدرك ذلك ولم يفطن الى تلك المعرفة كان مجردا عن العقل والادراك والتمييز . فقال (رب المشرق والمغرب وما بينهما ان كنتم تعقلون) . ولما أن عجز الجهول فى معرفة ربه تمادى فى طغيانه وكفره (قال لئن اتخذت الها غيرى لأجعلنك من المسجونين قال أو لو جئتك بشىء مبين قال فأت به ان كنت من الصادقين فألقى عصاه فاذا هى ثعبان مبين ونزع يده فاذا هى بيضاء للناظرين) . هكذا عداوة الكافرين لأنبياء الله تعالى المرسلين ، فما بالك

بسيد العالمين الذى جعل تعالى فى زمنه كل شىء بلغ منتهاه حتى فى الضلال والكفر ، وبالرغم من ذلك كله أبى الله تعالى الا أن يتم نوره ولو كره الكافرون قال تعالى (هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون) وقد أنجز تعالى ما وعد رغم أنف الكافرين والمشركين والمنافقين ، ومن يكون على قدمهم فى كل حين .

ومن أهم ما يريدونه ويرمون اليه هو نفى النفع عن حضرته وصرف الناس عن محبته التى هى أساس الايمان الذى عليه المدار دينا ودنيا وأخرى وتجزمون بعدم اختصاص الحق تعالى له بمميزات وأنه ما هو الا كأفراد بنى آدم الذين لا ميزة لهم الا بما أمروا بعمله فى الحياة الدنيا وبعد موتهم لا ميزة لهم ، لأجل أن يجردوا عباد الله الصالحين عن ذلك ، وخاصة بعد موتهم ولا يثبت لهم هذا الا بعد نفيه عن سيد العالمين ، واذا ثبت لديهم ما يقصدونه بالنسبة لحضرته صلى الله تعالى عليه وسلم كان بطريق الأولى تجريد الصالحين عن ذلك دنيا وأخرى معارضين كلام رب العالمين الذى أبان لنا سبحانه وتعالى فيه انه رفع أفـراد الموجودات بعضها على بعض درجات وخاصة بنى آدم الذين هم محل نظر الحق عز وجل من هذا الخلق قال تعالى (ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات) وطبعا لم يكن ذلك الا بالفضل والتمييز لأنه لا ضرورة الى الثانى اذا كان مثل الأول وقد بينا ذلك واذا ثبت كل ذلك فى هــذه الحياة الدنيا أفهل يسلب الحق عز وجل عباده المكرمين هذا الفضل فيما بعد الموت وهى الحياة الآخرة التى تلحقه بعد هذه الحياة الدنيا ؟ وقد قال تعالى (انظر كيف فضلنا بعضهم على بعض وللآخرة أكبر درجات وأكبر تفضيلا) . فانظر يا أخى الى أصــل عداوة الكافرين

ومنشئها ومن على قدمهم من أعداء رسل رب العالمين الى يوم الدين .

وأما عداوة المنافقين ، فمنشؤها منشأ عداوة الكافرين ، لأنهم اخوان لهم مصداقا لقوله تعالى : (ألم تر الى الذين نافقوا يقولون لاخوانهم الذين كفروا من أهل الكتاب) الآية . ولكن المنافقين كانوا يخالطون سيد العالمين ويشاهدون من المعجزات ما تبهر العقول ، ومع ذلك فلا يؤمنون .

وفى زمن الصحابة والتابعين بدأت المخالفة فى القضاء والقدر ، وزادوا عليها الاختيار والجبر ، وزادوا عليها ما أوجبوه على الله تعالى من فعل الصلاح والأصلح وهكذا ، ولكن لما كان ظاهرهم الاسلام أخذوا يتأولون آى القرآن على أهوائهم ليتحقق مصداق قوله تعالى (فأما الذين فى قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله) . وحين ظهرت منهم بوادر المخالفة لاجماع المسلمين وقد سموا بالخوارج أرسل لهم سيدنا على رضى الله تعالى عنه سيدنا عبد الله بن العباس رضى الله تعالى عنهما ، لمحاجتهم فلم يهتد منهم أحد فقتلهم كما أمر سيد العالمين صلى الله تعالى عليه وسلم شر قتلة ، وفر منهم اثنا عشر رجلا تفرقوا فى البلاد كما هو معروف وثابت ، وقد قال أحد الصحابة رضوان الله تعالى عليهم لسيدنا على ، الحمد لله الذى أراح المسلمين منهم فقال له على رضى الله تعالى عنه ، والله ليخرجن من أصلاب هؤلاء من يكون مع الدجال ، وهذا من مصداق قوله صلى الله تعالى عليه وسلم (ليخرجن من ضئضىء هذا من يكون مع الدجال) وأخذ المتفرقون الباقون منهم يتزاورون ويتناوبون الرحلات الى بعض ويدونون ما هم عليه خفية أن يطلع عليهم أحد من أهل الحق فيعيدون عليهم الكرة وما كان شأنهم بينهم الا أن يكونوا فى كل أمر ضد ما عليه أهل

الاجماع ، ولأنهم يحسبون أنفسهم أنهم من المسلمين بقولهم لا اله الا الله محمد رسول ويصلون ويصومون ظنا منهم أن الاسلام هو هذا فقط ، ولم يفطنوا الى أن المخالفة هى المشاقة لله تعالى ولرسوله صلى الله تعالى عليه وسلم وهى تخرجهم عن دين الله تعالى وشرعته التى أبانها لعباده على لسان من أسند اليه تعالى البيان والتبيين وعليه خيرة الأمة وبنوا عليه الاجماع ، ومن زيادة تعمقهم فى الضلالة أنهم يستدلون بالآيات القرآنية والأحاديث النبوية ويتأولونها بالمخالفة والمضادة والمعارضة لما عليه اجماع المسلمين ، ذلك سبيلهم الذى جنحوا اليه فخالفوا فى الآيات والأحاديث بالنسبة لمعرفة الحق عز وجل يتآولون فيها كما كان عليه من قبلهم من الكافرين المعارضين للأنبياء والمرسلين وينسبون اه تعالى من صفات الحوادث والجهة والمكان وغير ذلك من الأمور التى تعالى الله عنها علوا كبيرا ثم يطعنون فى سيد العالمين كما طعن من كان قبلهم فى الأنبياء والمرسلين بكل ما أوتوا من تحريف وتضليل وانصراف عن الحق المبين لعلهم يصلون الى مقام التوهين والحط من قدره الشريف ليبنوا عليه أمورا معروفة لهم ولأتباعهم .

وأما من على قدم هؤلاء وهؤلاء ، وهم منافقوا هذا العصر الذين هم من مصداق قوله الشريف صلى الله تعالى عليه وسلم فى الحديث المروى فى رؤية البارى جل وعلا (وتبقى هذه الأمة فيها منافقوها) فانهم يضادون أهل الحق فى كل شىء من هذا الدين والشرعة مما صار الاجماع عليه من الحق الصريح الواضح ، وذلك كقول أهل الحق فى معرفة البارى جل وعلا انه تعالى منزه عن الحد والجهة والزمان والمكان والجارحة ، وهم يضادونهم فى ذلك باثبات الجهة (فوق) لاغير (والمكان) (على العرش أو فى السماء) والجوارح (كالأيدى والأرجل

والأعين والجنب واليمين والشمال) ويثبتون له تعالى الحركة والسكون (كالنزول والمجيء) تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا ، فكذلك فى حضرته صلى الله تعالى عليه وسلم وقد عرف أهل الحق أن مبدع الكائنات جل وعلا جعلها أنواعا ورفع بعض الأنواع فوق بعض ، وجعل نوعا واحدا هو أعلى موجوداته ، وهم بنو آدم أعلى موجوداته ، وأعلاهم الرسل عليهم الصلاة والسلام ، وجعل فيهم واحدا هو أعلاهم ، وقد قدمنا أن ذلك من سعة الشرعة والمنهاج وعموم رسالته دون غيره من جميع الأنبياء والمرسلين . وهذا هو الدليل العقلى ، وأما الدليل النقلى فصريح الآيات القرآنية والأحاديث التى لم ينطق بها صلى الله تعالى عليه وسلم عن الهوى مما اختصه تبارك وتعالى به دون غيره من الأنبياء المرسلين . فهم لكونهم على قدم هؤلاء وهؤلاء لم يتركوا ناحية من نواحى تفضيل الله تعالى لحضرته الا وعارضوا فيها أهل الحق والاجماع فقد تكلموا بالمضادة والمعارضة ، فى نسبه الشريف ، مستدلين بقصة سيدنا ابراهيم عليه الصلاة والسلام وأبيه آزر ، وأخذوا منها الطعن فى النسب ، وعدم نفع النبى الرسول لمطلق أحد ولو لوالديه ، جاهلين أن الله تعالى ضرب بهذا مثلا وبامرأة نوح ولوط لبيان أن الايمان هو أساس الدين ، ومن غيره لا تنفع عند الله تعالى شفاعة الشافعين وهى بيان قوله تعالى (وأنذر عشيرتك الأقربين) وان لم يكن كذلك فلا يكون معنى لقوله تعالى (النبى أولى بالمؤمنين من أنفسهم) فولاية حضرته صلى الله تعالى عليه وسلم عامة ، وخص بها كل مؤمن خاصة والا فما معنى قوله تعالى (بالمؤمنين رءوف رحيم) وقوله تعالى (ولسوف يعطيك ربك فترضى) وهل عطاء الله تعالى بالنسبة لحضرته صلى الله تعالى عليه وسلم مقصور على الدنيا فقط ؟ أو على الآخرة

فقط ؟ أو على حالة خاصة فقط ؟ أو هو عام بالنسبة لحضرته صلى الله تعالى عليه وسلم على مصداق قول السيدة عائشة أم المؤمنين رضى الله تعالى عنها وزوج سيد العالمين صلى الله تعالى عليه وسلم فى قوله تعالى (ترجى من تشاء منهن وتؤوى اليك من تشاء) الآيات . فقالت رضى الله تعالى عنها لحضرته صلى الله تعالى عليه وسلم « ما أرى ربك الا يسارع فى هواك » وما هذا الا على منوال قوله تعالى (لعمرك انهم لفى سكرتهم يعمهون) وقوله تعالى (فاصبر فانك بأعيننا) وقوله تعالى (عفا الله عنك لم أذنت لهم) وقوله تعالى (وتقلبك فى الساجدين) وقوله تعالى (ما ودعك ربك وما قلى ولا الآخرة خير لك من الأولى) المفيدة لدوام الرعاية والكفاية والحماية والحفاوة وقوله تعالى (فكلوا مما غنمتم حلالا طيبا) الآية . فهى خاصة بحضرته صلى الله تعالى عليه وسلم دون جميع اخوانه الأنبياء المرسلين الذين كانوا لا تحل لهم الغنائم ، فهى من خصائصه الشريفة التى جاءت فى بيانه الشريف « أعطيت خمسا لم يعطهن أحد قبلى من الأنبياء والمرسلين نصرت بالرعب من مسيرة شهر وأحلت لى الغنائم وكان النبى يرسل لقومه خاصة وأرسلت للناس كافة وجعلت لى الأرض مسجدا وتربتها طهورا وأعطيت الشفاعة العظمى » .

فهم بالنسبة لسيد العالمين على قدم أعدائه صلى الله تعالى عليه وسلم فلا يقرون لحضرته بأى مميز ولا زيادة فضل عن سواه ، وما ذاك الا لأنهم على قدم سابقيهم . حذوك النعل بالنعل . ويستدلون على مزاعمهم تلك ببعض الآيات الكريمة التى يفهمون منها عدم امتيازه صلى الله تعالى عليه وسلم عن غيره من اخوانه الأنبياء والمرسلين ، كقوله تبارك وتعالى (قل ما كنت بدعا من الرسل وما أدرى ما يفعل بى

ولا بكم ان أتبع الا ما يوحى الىّ) . قال العماد بن كثير : أى لست بأول رسول طرق العالم بل قد جاءت الرسل من قبلى ، فما أنا بالأمر الذي لا نظير له حتى تستنكرونى وتستبعدوا بعثى اليكم ، فانه قد أرسل الله عز وجل جميع الأنبياء الى الأمم قال ابن عباس رضى الله عنهما ومجاهد وقتادة « وما أدرى ما يفعل بى ولا بكم » أى ما أدرى بماذا أومر وبماذا أنهى بعد هذا ؟ وقال أبو بكر الهذلى عن الحسن البصرى فى قوله تعالى (وما أدرى ما يفعل بى ولا بكم) قال أما فى الآخـــرة فمعاذ الله وقد علم أنه فى الجنة ولكن قال لا أدرى ما يفعل بى ولا بكم فى الدنيا أأخرج كما أخرجت الأنبياء عليهم الصلاة والسلام من قبلى ، أم أقتل كما قتلت الأنبياء من قبلى ؟ ولا أدرى أيخسف بكم أو ترمون بالحجارة وهذا القول هو الذى عليه المعول وقال ابن جرير انه لا يجوز غيره ولا شك أن هذا هو اللائق به صلى الله تعالى عليه وسلم فانه بالنسبة الى الآخرة جازم أنه يصير الى الجنة هو ومن تبعه ، وأما فى الدنيا فلم يدرى ما كان يؤول اليه أمره وأمر مشركى قريش الى ماذا أيؤمنون أم يكفرون فيعذبون فيستأصلون بكفرهم . اهـ . من ابن كثير . وقد جئتهم بتفسير ابن كثير لأنهم لا يعتقدون فى تفسير للقرآن غيره وهل ترى أن هذا قدح فى قدره صلى الله تعالى عليه وسلم أو أتى بما يوهم النقص فى حضرته كما يقصدون هم بقولهم أيضا قال الله تعالى (قل انما أنا بشر مثلكم يوحى الى) قال العماد ابن كثير : روى الطبرانى من طريق هشام بن عمار عن اسماعيل بن عياش عن عمر بن قيس الكوفى أنه سمع معاوية بن أبى سفيان يقول هذه آخر آية نزلت يقول تعالى لرسوله محمد صلوات الله وسلامه عليه قل لهؤلاء المشركين المكذبين برسالتك اليهم انما أنا بشر مثلكم فمن زعم انى كاذب فليأت بمثـــل

ما جئت به فانى لا أعلم الغيب فيما أخبرتكم به من الماضى بما سألتم من قصة أصحاب الكهف وخبر ذى القرنين مما هو مطابق فى نفس الأمر لولا ما أطلعنى الله عليه ، وانما أخبركم أنما الهكم الذى أدعوكم الى عبادته اله واحد لا شريك له . اهـ . من ابن كثير : هل رأيت فيه شيئا يشعر بالحط من قدره الشريف، أو بمساواته لبنى البشر كما يقول هؤلاء الضالون وأيضا يقولون فى حضرته صلى الله تعالى عليه وسلم انه لا ينفع أحدا ولا نفسه مستدلين بقوله تعالى (قل لا أملك لنفسى نفعا ولا ضرا الا ما شاء الله ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير وما مسنى السوء ان أنا الا نذير وبشير لقوم يؤمنون) قال العماد ابن كثير : أمره الله تعالى أن يفوض الأمور اليه وأن يخبر عن نفسه أنه لا يعلم الغيب المستقبل ولا اطلاع له على شىء من ذلك الا بما أطلعه الله عليه كما قال تعالى (عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحدا الا من ارتضى من رسول) الآية . وقوله (ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير) قال عبد الرزاق عن الثورى عن منصور عن مجاهد قال : لو كنت أعلم متى أموت لعملت عملا صالحا وكذا روى عن ابن أبى نجيح عن مجاهد وقال مثله ابن جريج وفيه نظر لأن عمل رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم كان ديمة . وفى رواية كان اذا عمل عملا أثبته فجميع عمله كان على منوال واحد كأنه ينظر الى الله عز وجل فى جميع أحواله ، اللهم الا أن يكون المراد أن يرشد غيره الى الاستعداد لذلك والله أعلم . وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم (وما مسنى السوء) قال لا جنبت ما يكون من الشر قبل أن يكون وأتقيته . ا هـ من ابن كثير . فأين هؤلاء وأين قولهم انه لا ينفع أحدا وأين استدلالهم وأين ما استدلوا به لتعرف أنهم من شيعة أسلافهم السابقين الأول المبغضين المعادين لسيد

العالمين أو لم يكفهم فى ذلك كله قوله تعالى (وما كان لرسول أن يأتى بآية الا باذن الله) ومن المقرر عقلا ونقلا أن الآية هنا هى الأمر الخارق للعادة التى لا يستطيع البشر أن يأتى بمثلها وهى المعجزة . وكم خص الله تعالى سيد العالمين بآيات لم يخصص بها غيره من اخوانه الأنبياء المرسلين ، وقد قدمنا أن القرآن المجيد قد بين لنا سبحانه وتعالى فيه حال البارزين المكرمين من الأنبياء المرسلين من مبدئهم لنهايتهم فكيف لا يبين لنا سبحانه وتعالى حال أبرز البارزين صلى الله تعالى عليه وسلم من كل النواحى ؟ فهؤلاء لطمس بصائرهم لم يتدبروا القرآن اذ على قلوبهم أقفالها وذلك لتتبعهم مبادىء الضلال الأول ، وقد قدمنا ذلك تفصيلا واضحا ، ولا تعجب من حال هؤلاء أى ضلال هذه الأمة الذين ينسبون أنفسهم الى الاسلام والمسلمين بل الى العلم والعلماء تمويها وتضليلا للبسطاء ويا ليتهم وقف بهم الضلال الى هذا الحد بل قد ضلوا فى معرفة خالقهم جل وعلا ومن ضل فى معرفته تبارك وتعالى فقد ضل فى معرفة كل شىء . ومن أهم الأشياء بعد معرفة الله تبارك وتعالى معرفة أفضل خلقه وأكرمهم عليه سبحانه وتعالى ، ومن كان كذلك فلا ينبغى الا أن يوضع بجانبه كل كمال خلقى وأعلى وصف ذاتى واكرام الهى حتى يتسنى لنا القول بأن مبدع الكائنات جعل فى كل نوع منها فردا هو أعلاها ومن ذلك تعرف قدرة القادر المبدع فتكون من أكبر الدواعى على معرفته تعالى .

فهؤلاء تجدهم يقرأون القرآن ولكن معانيه لا تتجاوز تراقيهم أو حناجرهم فهم من مصداق قوله تعالى (أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها) . الآية اذ لو تدبروا معانيه لوجدوا ان الله تعالى لم يوجد فى موجوداته شيئا مثل الآخر قط فى كل ما أوجد وأخبر عنه تعالى

بقوله (ومن كل شيء خلقنا زوجين لعلكم تذكرون) ومن الشيء الذرة فليست احداها مثل الأخرى ثم لفت تبارك وتعالى نظر عباده بقوله تعالى (وفى أنفسكم أفلا تبصرون) وقد قدمنا أن بنى آدم الذين جعلهم تبارك وتعالى أفضل خلقه لم يجعل فيهم واحدا مثل الآخر قط وبين ذلك تبارك وتعالى بقوله (ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات) وجعل سبحانه وتعالى رفع بعض العباد على بعض بالمميزات التى خص بها من شاء من عباده وجعل سبحانه وتعالى أفضلهم الرسل والأنبياء ولم يجعلهم أيضا على حالة واحدة قال تعالى (ولقد فضلنا بعض النبيين على بعض) وقال تعالى (تلك الرسل فضلنا بعضهم على بعض) وكان هذا التفضيل لحضراتهم صلوات الله تعالى وسلامه عليهم أجمعين بمميزات والمميزات لهم سعة شرعة كل واحد منهم على قدر الخلق المرسل اليهم وسعة علمه بالله تبارك وتعالى فانظر وتدبر من أوسعهم علما بالله تعالى لسعة شرعته فتعرف، من هو أفضل خلق الله ولكن لعداوة هؤلاء لا ينظرون الى ذلك بل لا ينظرون ولا يتدبرون الا فى كل أمر يتلمسونه بما يوجب أو يوهم فى نظرهم الحط والتوهين ولقد أحسن من قال :

وعين الرضى عن كل عيب كليلة   كما أن عين السخط تبدى المساويا

ولقد أحسن البوصيرى رضى الله تعالى عنه حيث قال :

كيف يهدى الاله منهم قلوبا   حشوها من حبيبه البغضاء

فهم لم يفهموا ما هى البشرية وما معناها . لأنه ان لم يكن صاحبها مستوفيا جميع أوصاف الكمال لم يكن كاملا فيها وكيف لا يكون كذلك وهو يقابل بها مثله فيها فان لم يكن بها أكمل البشر وأزيد منهم فيها لم تصح دعوته بها اليهم انظر الى بشرية موسى عليه السلام وما قال تعالى فيه (واصطنعتك لنفسى) (ولتصنع على عينى) وأنت تعرف ان

بشرية حضرته أرقى فهؤلاء لم يأخذوا ولم يستدلوا الا بالآيات التى ظاهرها فى نظرهم التوهين والحط من مقداره الشريف صلى الله عليه وسلم وهم لم يفقهوا لها معنى على ما قدمنا .

الفصل الثانى

فى توضيح الرد عليهم

على أنا قد قدمنا أن القرآن الكريم جاء مبينا لكل شيء وخاصة ما تعلق بحضرته صلى الله تعالى عليه وسلم من رفع شأنه فى كل شيء مما عساه أن يحوم حول قدره الشريف فى كل ما عساه أن ينسب اليه من الضعف أو التوهين حتى ما يتوهم فيه كل عدو ألد أنه يوهم نقصا كقوله تعالى (ولو تقول علينا بعض الأقاويل لأخذنا منه باليمين ثم لقطعنا منه الوتين فما منكم من أحد عنه حاجزين) وقوله تعالى (لقد كدت تركن اليهم شيئا قليلا اذا لأذقناك ضعف الحياة وضعف الممات ثم لا تجد لك علينا نصيرا) وكقوله تعالى (فلا تكونن من الممترين) (فلا تكونن من الجاهلين) (ولا تكونن من المشركين) وقوله تعالى (عبس وتولى أن جاءه الأعمى) وغير ذلك كثير مما ظاهره لشخصه الكريم الشريف وما هو الا ردع وزجر وتبكيت لمن كان ينسب القرآن الى أقواله الشريفة صلى الله تعالى عليه وسلم وأنه من عندياته أو أساطير الأولين وغير ذلك مما يجهلونه من بيان القرآن المجيد الذى قد جاء فيه بيان شؤون الدين للمخاطبين وتحذير الناس مما عساه أن يصدر منهم وهو خاص بهم ولكن الخطاب فى مواجهة حضرته صلى الله تعالى عليه وسلم اذ هو المخاطب بذلك المبلغ له كقوله تعالى (يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا الكافرين أولياء من دون المؤمنين) وغيرها من الآى الكريمة وخاصة فيما لفت اليه نظر عباده تبارك وتعالى ليفرقوا به بين صالحهم

وطالحهم كقوله تعالى (فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين) .
وهم لشدة جهلهم يتمسكون بقوله تعالى (قل انما أنا بشر مثلكم يوحى الىّ) فيقولون فى حضرته صلى الله تعالى عليه وسلم بالبشرية الصرفة ويموّهون على الضالين والمضللين بقولهم هذا ، ويضمون الى ذلك ما كان عليه صلى الله تعالى عليه وسلم من مستلزمات حياة كل بشر ليبنوا عليها أمورا ، وأهمها عدم امتيازه صلى الله تعالى عليه وسلم بشيء أزيد من كل البشر ليعارضوا به أقوال من وفقهم الله تعالى لمعرفة الفرق والتفاوت فى بشرية البشر وأهم تلك الفروق فيما بين الأنبياء والرسل وبين عامة الناس ، فكيف ببشرية حضرته صلى الله تعالى عليه وسلم الذى جعله تعالى سيدا للعالمين ؟ .

والبشرية نسبة الى البشر وهو الانسان مأخوذ من مباشرته للموجودات أو لما ظهر منه وهى جلدته والبشر الخلق أو الانسان ذكرا كان أو أنثى وفى التنزيل (أنؤمن لبشرين مثلنا) وأبو البشر كنية آدم . وعلى كل يستوى فى هذا المعنى كل انسان بشر فى الوجود ولكن فى التكوين والتقدير اختلافات بعيدة ونسب متفاوتة كما هو معلوم فى كل فرد منهم بالعقل والنقل .

وقد قلنا انه لا يخفى على كل ذى عقل راجح أن الكتب السماوية هى عبارة عن ارشاد الحق عز وجل عباده لما فيه صلاح حالهم دينا ودنيا وأخرى وأن الرسل عليهم الصلاة والسلام هم الواسطة العظمى بين الحق والخلق وأنهم هم أمناء الله تعالى فى أرضه المبلغون عنه سبحانه لصلاح العمران فى هذه الحياة الدنيا ولذا كان عدم الايمان والتصديق بهم كفرا وجحودا للحق سبحانه وتعالى ولما كانوا كذلك كان الخطاب لهم كما هو الوضع الالهى فى كل خطاب يخاطب الله سبحانه رسوله

صلى الله عليه وسلم والمراد به جميع المأمورين بذلك ولا لما صح الايمان وهو التصديق بالرســول المبلغ ولا العمل بما يأمر به أو ينهى عنه .

ولا يخفى أن كل مخالف لاجماع المسلمين فى معرفة رب العالمين يريد المعارضة لهم فى كل ما أجمعوا عليه من الحق المبين ، ومن أشنعها فى معرفة سيد العالمين ، يقولون انه بشر مثلك مثله نظرا لما قدمنا من المستلزمات البشرية فى الحياة الدنيوية . وهم بذلك قد ضلوا وأضلوا كثيرا ولو جاريناهم فى جميع تطورات بشريته صلى الله تعالى عليه وسلم وفيما خلق وطبعه الله تعالى عليه من البشرية لوجدناه مغــايرا لجميع أفراد البشر كل المغايرة . اذ أن بدء بشريته حين ولادته صلى الله تعالى عليه وسلم أكرمه الله تعالى ليلة ولادته ، بما لم يعمله مع غيره من المكرمين الأنبياء والمرسلين . فان مرضعته كان أحد ثدييها مشلولا وهو الأيمن لا يصلح للرضاع فلما حملته ناولته الأيسر فلم يقبله فناولته الأيمن فبرىء وصار رضاعه منه الى فطامه ، وخاصة لما نالها من وقت أخذها له من الخير العظيم من سعة الرزق وكثرة البركة فيه ، وكان شبوبه فى الطفولة يغاير شبوب عموم البشر من النهوض مع قوة الجسم وكانت تذهب به لأمه وأهله وترجع به على خلاف عادة المرضعات ، ولما أن شق صدره الشريف مع اخوانه رعاة الغنم ورأت أثر الشق خافت عليه وردته لأهله ، ومن أراد الزيادة فعليه بأول مدون فى السنة « السيرة النبوية » وفى طابعه البشرى أن الصدر والبطن سواء ، وفى طابعه البشرى انصرافه عن جميع ملاهى الطفولة ، وفى طابعه البشرى عدم استطاعة نظر أى انسان الى نظره الشريف مواجهة له ، وفى طابعه الشريف شق صدره على ما هو مدون بالسنة الأربع مرات ومن أراد الزيادة فعليه ببيان السنة عند قوله تعالى (ووجدك ضالا فهدى) وما صــدر من عمه

أبى طالب بعد جده لعمه العباس فى قوله أرأيت أن محمدا يعتاد أشياء لم تكن فينا وهى اذا أراد أن يأكل يقول بسم الأحد واذا أكل أو شرب يقول الحمد لله ؟ فقال أبو لهب أرأيتم وقت أن ضل محمد وانتشرنا فى جمعه فدخلت مفاذة فاذا هـــو فيها فلما أبصرته ناديته فوقف فأنخت راحلتى وأردت اردافه خلفى فلم تقم فحركتها فلم تقم فزجرتها فلم تقم فضربتها فسمعت من يقول هل الناقة أم غيرها « يا أجهل الجهلاء تتقدم على سيد المرسلين والأنبياء » فجعلته أمامى فقامت الناقة من غير تحريك لها ، وأخذوا يذكرون من مآثره التى لم تكن مألوفة لهم ، ومنها انه صلى الله تعالى عليه وسلم عند بناء الكعبة الشريفة وكان يحمل الحجارة كباقى الناس وكان له من العمر ثمان سنين فأراد عمه العباس أن يجعل ثوبه على عاتقه لحمله للحجارة فلما رفع ثوبه خر مغشيا عليه ولم تبد منه عورة ومنها لما تم بناء الكعبة الشريفة وأرادوا وضع الحجر الأسود فى مكانه فتنازعوا كل يرجوا وضعه فتحاكموا لأول داخل من الباب فكان حضرته صلى الله تعالى عليه وسلم وهو بهذا السن فقالوا جميعا هذا الأمين وكلنا نرضاه « فقال ضعوه فى رداء وارفعوه جيمعا الى مكانه » ورضوا أن يضعه هو بيده الشريفة ، والسنة ملآى من مميزاته الشريفة من الارهاصات قبل بعثه فما بالك بعد بعثه الشريف . ومن طابعه البشرى خاتم النبوة بين كتفيه بالطابع الالهى الذى لم يشاركه فيه بشر فكيف يكون بعد هذا كالبشر العادى ، وانه كان من خصائصه الشريفة لا يقبل الصدقة ويقبل الهدية . وان الله تعالى علم أن سيكون فى عباده مخالفين فى كل شيء حتى فى مزايا حضرته وخصائصه فلفت نظر عباده فى الآيتين الكريمتين فى كلامه العزيز فى آخر سورة الكهف وفى أوائل سورة فصلت بقوله تعالى (قل انما أنا بشر مثلكم يوحى الى)

فكان يكفى قوله تعالى (يوحى اليّ) بجوار قوله تعالى بشر مثلكم لأنه ليس كل بشر يوحى اليه فردع بها المخالفين ولم يرتدعوا وقد عمل بها أهل الحق والاجماع وعرفوا منها مزيد فضله وبيان خصائصه .

والحكمة فى أن الله تعالى جعل رسله بشرا لأن المخاطبين المرسلين اليهم بشر ، وليعلم الناس من ذلك ان مبدع الكائنات جل وعلا له الاختصاص فى خلقه كما يشاء ولما فى ذلك من كبير الدلالة على معرفته تبارك وتعالى وليعلم كل مخاطب أن مبدع الكائنات لم يجعلهم على حالة واحدة ولذا لما كان الكل لا يصلح للخطاب على حدته جعل لهم منهم مبشرين ومنذرين وجعل تكوين المخاطبين من البشر وغيرهم صالحا للقبول فمن صدق كان مستحقا لكل خير فى الأحوال الثلاثة دينا بالايمان ودنيا بصلاح الحال وأخرى بحسن المآل ومن أبى كان بعكسه ، واذا كان الأمر كذلك فلا يكون المبلغ الا بشرا ، ولكنه لا ككل البشر من كل الوجوه ويكفينا فى البيان الشريف أنه يوحى اليه وهل يوحى الى كل بشر ؟ كلا ! فهم لطمس بصائرهم يتبعون أسالفهم الضالين المعارضين للأنبياء والمرسلين الذين سبقوهم الى الكفر والعياذ بالله تعالى ممن قالوا لنوح (ما هـذا الا بشر مثلكم) وممن قالوا لموسى وهارون (أنؤمن لبشرين مثلنا وقومهما لنا عابدون) ؟ وممن قالوا لحضرته صلى الله تعالى عليه وسلم (أهذا الذى يذكر آلهتكم) ؟ (لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم) فترى هؤلاء لا يتكلمون بخير فى سيد العالمين، ولشدة عمى بصيرتهم لم يروا الا المخالف ولم يفكروا الا فيه ولم يبحثوا الا عنه . أو لم ينظروا الى مغايرته صلى الله تعالى عليه وسلم لجميع اخوانه الأنبياء والمرسلين الذين كان يأتيهم الوحى رجلا يكلمهم ويكلمـونه ولا يعرفه أحـد من النـاس الا الموحى اليه ،

وأما حضرته صلى الله تعالى عليه وسلم فكان كذلك ويغايرهم فى دخول الملك فى جسده الشريف وهو المعبر عنه فى الحديث « وهو أشده علىّ »، ولذا كان من العجب العجاب أن يدخل الملك اللطيف فى الجسد الكثيف وهو عين المحال وانما عرف العقلاء من البيان الشريف والتخصيص اللطيف أن جعل الكبير المتعال تكوينه الشريف على حالتين حالة يقابل بها الملك وهى الحالة الربانية الصرفة التى كان بها صلى الله تعالى عليه وسلم مشاهدا للحق جل وعلا على الدوام وحالة بشرية يقابل بها البشر ليأخذوا منه وعنه ، أو لم ينظروا الى قدرة القادر المبدع صنعا فى تكوين عيسى عليه السلام عن ملك وبشر ليعيش بالبشرية مع البشر وبالملكية مع الملائكة ولقد أحسن من قال :

عن ماء مريم أم عن نفخ جبرين   سواه كالبشر المخلوق من طين

فسبحان مبدع الأشياء بقدرته ومبرزها بعظيم صنعته فقد جعل الله تعالى فى بشرية حضرته صلى الله تعالى عليه وسلم أنه كان لا يرى له ظل شرقيا كان أو غربيا على خلاف جميع الموجودات وكذا ما كان عليه صلى الله تعالى عليه وسلم اذا مشى على الصخر الصلد يلين تحت قدميه الشريفتين آليس هذا مميزا لبشريته عن بشرية كل بشر ؟ فكيف يعطى هؤلاء أفضل مبدع لله عز وجل نوع البشرية الصرفة من كل الوجوه ؟ فهم لم ينظروا الا لما ظهر لهم من المأكل والمشرب وملحقاتهما مما هو من مستلزمات البشرية وتمسكوا بها مخالفين لما عليه اجماع المسلمين رجاء عدم تمييزه صلى الله تعالى عليه وسلم عن غيره من البشر العادى .

على أنا قد قدمنا وبينا أن الله تعالى لم يخلق شيئا من أفراد أنواع موجوداته الا وقد جعله فى عمومه على حالتين حالة له تبارك وتعالى

لاتصالها به جل وعلا وهى من لدنه ويكون بها الاستمداد للمخلوق ليؤدى بها جميع ما خلق له وبذلك يكون له تعالى الحركة والسكون والفعل والانفعال قال تعالى (وما رميت اذ رميت ولكن الله رمى) (فعال لما يريد) (ان الله على كل شيء قدير) (ألا انه بكل شيء محيط) ومن الأشياء الذرة قال تعالى (لا يعزب عنه مثقال ذرة فى الأرض ولا فى السماء) (بيده ملكوت كل شيء) (ولا يؤده حفظهما وهو العلى العظيم) وبهذا الوجه الربانى والاتصال الرحمانى يؤدى كل مخلوق ما خلق لأجله وبه ومنه تصح نسبة الأفعال الى الفاعل المختار تبارك وتعالى ، وحالة خلق عليها الموجود ليؤدى ويباشر بها جميع ما خلق لأجله وبها ومنها ينسب له العمل بالفعل اللازم المخلوق بسببه المنسوب اليه وذلك فى كل شيء بحسبه من حيوان ونبات وجماد وماء وهواء (ان فى ذلك لآيات لقوم يعقلون) الذين يتدبرون الأشياء على ما ينبغى ، ولا ينكر هذا الا كل من قصر عقله عن ادراكه ويشهد لنا فى هذا المعنى قول الحق عز وجل (كل شيء هالك الا وجهه) وقوله تعالى (كل من عليها فان ويبقى وجه ربك ذو الجلال والاكرام) فاذا كان أفراد الموجودات كذلك وقد عرفنا أن بعضها يفضل بعضا وقد عرفنا التفاوت بينها فى الفضل — أفهل يكون أفضلها على الاطلاق كأى فرد من أفرادها حتى يقول هؤلاء ان بشرية حضرته صلى الله تعالى عليه وسلم كبشرية أفراد الناس ؟ . وما الغرض الذى يرمون اليه الا نفى الخيرية والبركة بالنسبة لحضرته ، فاذا تحقق لهم ذلك يكون نفيها عن جميع الأولياء والصالحين من آل بيته صلى الله تعالى عليه وسلم الطيبين الطاهرين رضوان الله تعالى عليهم أجمعين بطريق الأولى فينفون عنهم كل خير وبركة وينتقدون زائريهم وقاصديهم المحبين لهم الممتثلين لقول الله عز وجل لحبيبه

صلى الله تعالى عليه وسلم (قل لا أسألكم عليه أجرا الا المودة فى القربى)
وقد سئل صلى الله تعالى عليه وسلم عمن تجب على المؤمنين مودتهم
فقيل : من آل بيتك يا رسول الله الذين أوجب الله تعالى علينا مودتهم ؟
فقال « فاطمة وعلى وما تناسل منهما » ويشهد لهذا الحديث قوله تعالى
(فمن حاجك فيه من بعد ما جاءك من العلم فقل تعالوا ندع أبناءنا وأبناءكم
ونساءنا ونساءكم وأنفسنا وأنفسكم ثم نبتهل فنجعل لعنة الله على
الكاذبين) فقالوا من الغد يا محمد فلما غدوا من الغد خرج صلى الله
تعالى عليه وسلم وبيديه الحسن والحسين وخلفه فاطمة وخلفها على
رضوان الله تعالى عليهم ، فعرف الناس من هذا أن هؤلاء هم آل بيته
الطيبين الطاهرين المباركين الذين قال فيهم صلى الله تعالى عليه وسلم
« أحبوا الله لما يغذوكم به من نعمه وأحبونى لحب الله وأحبوا آل بيتى
لحبى » فالمتوجه اليهم الزائر لهم لا يرجو الا أمرين أحدهما : ود النبى
صلى الله تعالى عليه وسلم فى آل بيته كما تقدم وثانيهما : الامتثال لما أمر
الله تعالى به عباده من نيلهم البركة وأخذهم لها من مصادرها وقد أبان
سبحانه وتعالى لعباده المؤمنين انه جعل فى كل شىء من خلقه بركة
وأرشدهم الى التوجيه اليها والأخذ من مصادرها قال تعالى (ان أول
بيت وضع للناس للذى ببكة مباركا) وقال تعالى (وليطوفوا بالبيت
العتيق) وقال تعالى (فاذا أفضتم من عرفات فاذكروا الله عند المشعر
الحرام) وقال تعالى (ان الصفا والمروة من شعائر الله) وقال تعالى
(واتخذوا من مقام ابراهيم مصلى) وقال تعالى (فى البقعة المباركة من
الشجرة) وقال تعالى (زيتونة مباركة) وقال تعالى (أنزلنا من السماء
ماءا مباركا) وقال تعالى (وجعلنى نبيا وجعلنى مباركا) وقال صلى الله
تعالى عليه وسلم « ان من الشجر شجرة ما بركتها كبركة المسلم »

وهل بين الحق تبارك وتعالى من موجوداته ما جعل فيه البركة ليقصدها عباده تعالى لما فيها من هذه الميزة أو ليتركوها ؟ وهل من قصدها يكون مشركا بالله تعالى ؟ أو هو ممتثل قوله تعـالى (وأتوا البيوت من أبوابها) وقد قال أفاضل الأمة باب الخلق خلق والكل مخلوق له تبارك وتعالى وقد جعلها مصادر ولفت نظرهم اليها وجعلها أسباب يتوصلون بها الى مقاصدهم لتدلهم عليه تبارك وتعالى (واسألوا الله من فضله) أى مما قربه اليكم وجعله بين أيديكم على ما قرره العلامة البيضاوى فمن أتى شيئا من ذلك فقد أتى الله تعالى من الباب المشروع ولا شيء فى نسبة الأفعال اليها لأنه هو الفاعل المختار جل وعلا فى كل شيء .
والأشياء المقصودة لا تأتى بشيء من نفسها انما بفضل الله تعالى بها وفيها ، وقد قدمنا الكلام فى شيء من هذا وسيأتى ان شاء الله تعالى موفى فى باب التوسل والوسيلة — مع أن الله تعالى أبان لعباده فعل هذه الأشياء وأسند اليها هذا الفعل قال تعالى (وهو الذى يرزقكم من السماء والأرض) وقال تعالى (فأنساه الشيطان ذكر ربه) فأسند سبحانه وتعالى الفعل الى الشيطان وأسند الفعل الى ابليس (فسجد الملائكة كلهم أجمعون الا ابليس أبى واستكبر وكان من الكافرين) وقال تعالى حاكيا لنا عن أنبيائه ورسله واسنادهم الفعل للأشياء المخلوقة قال تعالى (فوكزه موسى فقضى عليه قال هذا من عمل الشيطان) وقال تعالى عن سيدنا يوسف (بعد أن نزغ الشيطان بينى وبين اخوتى) وقال تعالى عن سيدنا أيوب (مسنى الشيطان بنصب وعذاب) فقال تعالى عن سيدنا يوسف (بعد أن نزغ الشيطان بينى وبين اخوتى) الآيات التى بينها تعالى على لسان أنبيائه ورسله من لفت نظر عباده الى الأسباب والأخذ منها ومن أتاها لايكون مشركا كما سيأتى بيانه ان

شاء الله تعالى فى التوسل والوسيلة — ويقولون ان هذا قد يكون فى الأسباب المادية المستلزمة للحيـاة الدنيوية ، وفى بنى آدم قد يكون فى الأحياء وأما الأموات فانهم قد ماتوا وانتهوا وانقطعت صلتهم بالدنيا ومن فيها حتى يقول قائلهم ان سيد العالمين صلى الله تعالى عليه وسلم مات وانتهى وما هذه الا عقيدة الضالين والكافرين الذين يعتقدون ان الموت عدم محض . وأما المؤمنون فانهم يعتقدون أن الموت عبارة عن الانتقال من حياة الى حياة أقوى من الأولى كما سيأتى بيانه ان شاء الله تعالى فى باب معرفة الموت والحياة وكذا قلنا هناك بصريح القرآن وبيان السنة ان الكافر حى فى قبره أحيا من حياته الدنيا . أما القرآن فقد قال تعالى (ولو ترى اذ الظالمون فى غمرات الموت والملائكة باسطوا أيديهم أخرجوا أنفسكم اليوم تجزون عذاب الهون) الآية ولا يشعر بالعذاب الا من كان حيا ، وأما السنة فقد قال فيها صلى الله تعالى عليه وسلم للكفار الصرعى فى القليب قليب بدر « هل وجدتم ما وعد الله حقا ؟ فقالوا يا رسول الله أتناجى أمواتا ؟ فقال ما أنتم بأسمع منهم ولكن لا يجيبون » وسيأتى ان شاء الله تعالى موفى بأوسع فى ذلك .

الفصل الثالث

فى نسبة الأفعال إلى الموجودات

غير خاف على كل ذى بصيرة أن الله عز وجل جعل تكوين أفراد الموجودات بمقتضى كماله مشتملا على ما يشاء من ابداع الحكم العالية ونسب اليها تلك الأفعال التى تصدر منها وعنها نسبة حقيقية ورتب عليها مناط التكاليف الشرعية من الأمر والنهى ، ولا تعقل الأشـياء الا بهذا الوضع الالهى ، وجعل نسبة الأفعال الى هذه الموجودات هى

نسبة حقيقية ولا ينكرها الا من قصر عقله عن ادراكها قال تعالى (والله خلقكم وما تعملون) فالعمل داخل فى تكوين العبد مشتمل عليه ، فلا يخرج شيء من هذه الموجودات من الدنيا الا بعد أن يؤدى جميع ما خلق لأجله . قال الصادق المصدوق صلى الله تعالى عليه وسلم « لن تموت نفس حتى تستكمل أجلها ورزقها وعملها » وفى الحديث المروى عند البخارى عن على بن أبى طالب رضى الله عنه وكرم الله وجهه قال « بينما نحن جلوس فى جنازة فى بقيع الغرقد اذ أقبل علينا النبى صلى الله تعالى عليه وسلم قمنا فقابلناه فجلس فجلسنا حـوله ومعه مخصرة ينكث بها فجعل ينكث بها ثم قال : ما من نفس منفوسة الا قد كتب عملها شقية أو سعيدة فقال قائل : اذا ندع العمل ونتكل على الكتاب يا رسول الله ؟ فقال : أما من كان من أهل السعادة فسيصيره كتابه لعمل أهل السعادة ، وأما من كان من أهل الشقاوة فسيصيره كتابه لعمل أهل الشقاوة قال تعالى « فأما من أعطى واتقى وصدق بالحسنى فسنيسره لليسرى وأما من بخل واستغنى وكذب بالحسنى فسنيسره للعسرى » فعمل العبد داخل فى تكوينه مشتمل عليه يقوم بتأديته ظنا منه انه بجده واجتهاده ، ولكنه مجبول عليه بطبعه لتكوينه لذلك ليؤدى به عملا مراد الله تعالى لا لنفس ذلك العبد ، ولو اطلع هو على ذلك لم يختر شيئاً غيره وذلك لاستعداده وقبوله ذلك المخلوق لأجله قال تعالى (ربنا الذى أعطى كل شيء خلقه ثم هدى) فالعاقل البصير اذا نظر الى أى فرد من أفراد الموجودات وجد تكوينه مشتملا على ما خلق لأجله ، فاذا ما طلب منه ذلك المشتمل عليه فى التكوين للمعنى المطلوب منه فيؤديه بدون تخلف وتنسب اليه تلك التأدية نسبة حقيقية عند التعبير باطلاق الفعل عليه ونسبته اليه ، وانى أضرب لك مثلا واحدا فى كل جنس من

أجناس الموجودات لتقيس عليه وتعرف منه تلك النسبة ، فالانسان اذا عدى على غيره بايذاء أو نفع أو دفع فلا ينسب ذلك الفعل الا اليه لمباشرته اياه ، وعلى هذا جاء بيان جميع الأحكام الشرعية ، وأيضا اذا نظرت الى جميع أفراد الحيوان فلا تجده الا كذلك ، فانه يؤدى ما خلق لأجله وينسب اليه الفعل نسبة حقيقية ، وكذا أيضا فى أفراد النبات فانه يؤدى المعنى الذى خلق لأجله بما اشتمل عليه تكوينه فلا يتخلف عند الطلب كالعقار وجميع أنواع المأكولات والمشروبات وكذا جميع أصناف ما خلق الله تعالى فيها جميع الأدواء وغيرها ، وكذا أيضا جميع أفراد الجماد ففى كل فرد من أفراده جعل المبدع جل شأنه فيه مزية تغاير الآخر ويؤدى بها المعنى المراد المشتمل عليه تكوينه كالكباريت والأملاح والمعادن وكافة الأحجار كريمة وغيرها ، فاذا كانت هذه الموجودات المخلوقة لأكرم مخلوق عند الله تعالى وهو ابن آدم أفلا يكون هو عموما فيه مزايا فكيف بالخواص منهم وكيف بأخص الخواص فيهم أفلا يكون فيه المزايا أعم وأشمل ؟

على أنا قد قررنا أن هذه الموجودات جعلها القادر جل شأنه بمقتضى تكوينها مشتملة على حالتين وخاصة فى كل نوع من أنواع هذا الموجود من أنه لا يخرج عن النفع والضر والاحسان والاساءة والخير والشر والايمان والكفر والطاعة والمعصية والحق والضلال قال تعالى (ومن كل شىء خلقنا زوجين لعلكم تذكرون) فاذا عرفت ذلك فقد عرفت ما أنزل الله على عباده من الأنبياء المرسلين الا ليبينوا لعباده حقائق هذا الوجود وما اشتمل عليه من هذا الخلق البديع الذى له ظاهر وباطن وسر وجهر ؛ لأنه تبارك وتعالى سمى نفسه بالظاهر والباطن وبين لهم بأن المشرع لهم له ظهر وبطن قال تعالى (واجتنبوا الفواحش ما ظهر

منها وما بطن) وقال تعالى (قل انما حرم ربى الفواحش ما ظهر منها وما بطن) وقد عمم تبارك وتعالى فى جميع نعمه (وأسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة) فالرسل صلوات الله تعالى وسلامه عليهم أجمعين ما تركوا شيئا من ذلك الا وقد بينوه لعباده وخاصة سيد العالمين الذى أعطاه الحكيم العليم من السعة العلمية والمعرفة به تعالى أكثرهم أجمعين ، واذا كان كذلك فكيف يساوى به غيره من كل الوجوه ؟ ومن جهل ذلك فقد جهل أسرار الله تعالى فى مكوناته وبما أجراه تعالى على أيديهم ظاهرا فيما يؤدونه لعباده فيما خلقوا لأجله .

ولكن لما كان أكثر المخاطبين من بنى آدم لا يعقلون الا الظاهر ، فجعل تبارك وتعالى جميع أنواع التشريع ظاهرا ولا تعويل فيه الا على الظاهر بالأخذ فى الأسباب الظاهرة والالتجاء اليها والأخذ منها والتعويل عليها قال تعالى (واسألوا الله من فضله) أى مما قربه اليكم وجعله بين أيديكم كما قال تعالى (يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وابتغوا اليـه الوسيلة) فقد جعل تبارك وتعالى الوسائل فى كل شىء بحسبها فحياتك وما يلزمها لها وسائل خاصة واحتياجك فى هذه الحياة الدنيا له وسائل خاصة ورضوان أهلك وذويك ومعاشريك ومصاحبيك لهم وسائل خاصة ورضوان ربك ورسوله له وسائل خاصة ورضوان والديك لهم وسائل خاصة والميراث فى الجنة له وسائل خاصة فالوسيلة فى كل شىء بحسبها وكلها أعمال صالحة ولا تخصيص لها بالصوم والصلاة على ما سنبينه فى باب الوسيلة ان شاء الله تعالى ، وهذا ما أخذ من بيان رب العالمين وتبيين سيد المرسلين صلى الله تعالى عليه وسلم ، فهاكم آدم أب البشر عليه السلام وهو أول نبى لبنيه ، لم يوجه الحق جل وعلا الا للأخذ فى الأسباب ، لتوجيه بنيه لذلك ، بعد أن عرفه الله الركون اليها والتعويل

عليها وكذا بعده ابنه شيث عليه السلام وكذا بعده ادريس عليه السلام وكذا بعده نوح عليه السلام وهود وصالح ولوط وابراهيم أب الأنبياء والمرسلين صلوات الله تعالى وسلامه عليهم أجمعين الى نبينا محمد صلى الله تعالى عليه وسلم فلم تكن دعوتهم جميعا الا الى الأخذ فى الأسباب الظاهرية والاستمساك بها ، وكذا كانت معجزاتهم عليهم الصلاة والسلام وهم كانوا يسندون الأفعال الى الموجودات وينسبونها اليها نسبة حقيقية ظاهرة ، حتى انه قد ضل الكثير فى هذا البحث ، وجهلوا معرفة الخالق تبارك وتعالى لهذه الأشياء وظنوا أنها تؤثر بطبعها وجهلوا أن الله تعالى لم يجعلها الا مصادر لأفعاله المرادة له تعالى .

واليك نبذة من هذا مما جاء به القرآن الكريم واشتمل عليه بيان السنة المطهرة فهذا آدم أب البشر عليه السلام فقد أسند الله تعالى اليه الأكل من الشجرة وكانت سببا فى خروجه من الجنة ، وحياته كلها توجيه وارشاد ، لبنيه فى جميع مستلزمات الحياة من كافة أنواعها وطرقها ، فما من حالة فيها مستلزمات الحياة الا وكان مصدرها على يد أبيه آدم ، وهذا ابليس اللعين واسناد عدم السجود له وكان سببا فى خزيه ولعنه وطرده ، وهذا ابنى آدم وما صدر منهما ، وهذا ادريس عليه السلام وما جاء فى بيان السنة من حاله ، وهذا نوح عليه السلام وهكذا كل نبى أو رسول وما جاء القرآن ببيانه والسنة المطهرة وكذا ما نسب الله تبارك وتعالى الفعل الى الشيطان قال تعالى (فأنساه الشيطان ذكر ربه) وقال تعالى حكاية عن سيدنا موسى عليه السلام (فوكزه موسى فقضى عليه وقال هذا من عمل الشيطان) وقال تعالى حكاية عن سيدنا يوسف عليه السلام (بعد أن نزغ الشيطان بينى وبين اخوتى) وقال تعالى حكاية عن سيدنا أيوب (مسنى الشيطان بنصب وعذاب) فلفت

نظره تبارك وتعالى الى الأسباب بقوله تعالى (اركض برجلك هـذا مغتسل بارد وشراب) وبارشاده تعالى لنبيه صلى الله تعالى عليه وسلم (يا أيها النبى حرض المؤمنين على القتال) وبقوله تعالى (يا أيها النبى حسبك الله ومن اتبعك من المؤمنين) وفى قوله تعالى (وقل لهم فى أنفسهم قولا بليغا) وفى قوله تعالى (ومنهم من يلمزك فى الصدقات فان أعطوا منها رضوا وان لم يعطوا منها اذا هم يسخطون ولو انهم رضوا ما آتاهم الله ورسوله من فضله وقالوا حسبنا الله سيؤتين الله من فضله ورسوله انا الى الله راغبون) وهكذا جميع آى القرآن المبين وبيان السنة المطهرة واغتسال سيدنا موسى عليه السلام ووضعه لثوبه على الحجر ومناداته للحجر وطلبه لثوبه من الحجر بقوله « ثوبى يا حجر ثوبى يا حجر ثوبى يا حجر » وهو يعدو به حتى أدركه ومال عليه ضربا بالعصى وكذا فى قوله تعالى (فقلنا اضربوه ببعضها كذلك يحيى الله الموتى ويريكم آياته لعلكم تعقلون) وهكذا اسرار الحق عز وجل فى مكوناته التى تدل عباده عليه تبارك وتعالى التى لم تظهر الا لمن عرف ربه فيفيض عليه تبارك وتعالى فيعرف أسراره فى مكوناته فكيف بسيد العالمين صلى الله تعالى عليه وسلم بما خصه تبارك وتعالى من مزيد الفضل والاحسان ؟ وقد سأله عمه العباس رضى الله عنه فى الحديث المروى عند البخارى « ألم تغن عن عمك شيئا فانه كان يحوطك ويغار لك فقال صلى الله تعالى عليه وسلم لولا أنا لكان فى الدرك الأسفل من النار لعله يعذب فى ضحضاح من النار يغلى لأم رأسه » أو ذلك مسبح صلى الله تعالى عليه وسلم على جميع جسده ما عدا أخمص قدميه ، أو لم ينفعه صلى الله تعالى عليه وسلم مع عدم ايمانه به وانه لو كان آمن به لاندرج تحت قوله تعالى (النبى أولى بالمؤمنين من أنفسهم) فكيف بعد هذه

الآية الكريمة وأخبار العزيز الرحيم بذلك يكون لا ينفع اللهم أدم علينا حبك وحبه وعطفك وعطفه حيث جعلته رحمة للعالمين يا من بيدك ملكوت كل شيء يا ألله .

الفصل الرابع

فى حكمة وجود الموجودات

اعلم أنار الله بصيرتك بنور الايمان ، وهدانى واياك لمرضاته ، أنى قبل أن أشرع فى الموضوع الخاص بهذا الباب أرى لزاما علىّ أن أتكلم على حالتين ضروريتين ، لتبادر الأذهان اليهما ، للوقوف على حقيقتهما .

أولا : حكمة وجود الموجودات لا حكمة خلقها ، وان كان لفظ الايجاد هو بمعنى الخلق . يقال لغة : أوجد الله تعالى الشيء = أبرزه من العدم الى الوجود خلقه فأوجده أى خلق فهو موجود . اهـ محيط المحيط . والخلق : قال تعالى (وما خلقت الجن والانس الا ليعبدون) . وفى بيان الفرق بين الحكمتين .

أقول : ان من تمام كماله تعالى أنه قال تعالى (ان الله غنى عن العالمين) ولا يتحقق الغنى المطلق له تعالى الا اذا رجع الكل اليه فى الموجودات باستيعاب ذاته تعالى لكل شيء (اليه يرجع الأمر كله) وبعد هذه المرتبة مرتبة (ألا له الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين) (وعدا علينا انا كنا فاعلين) (وكان أمر الله قدرا مقدورا) (وكان أمر الله مفعولا) ويكفينا أن هذه الآيات صريحة فى أن العوالم كلها انما هى صور الأمر الالهى .

وأما حكمة الوجود فمرجعها الى الغنى المطلق وهنـاك لا قدم

ولا حدوث ، لانتفاء الكثرة . وأول مراتب الظهور للموجودات لا يكون الا بالابداع ، لانتفاء المادة وعدم وجود شيء مع الله تعالى يكوّن منه .

وانما هي ظهور الحق بفاعليته ، وهى ما تسمى بحقيقة الحقائق ، وروح الأرواح ، ومجلى العلم الالهى ، وهى الذات التى ترجع اليها كل العلوم ولقد أحسن البصيرى فى تعبيره بقوله :

لك ذات العلوم من عالم الغيـ ـب ومنها لآدم الأسـماء

وهذا هو محط رحال الناظرين ، وكعبة الباحثين فى ذلك . وقد أفيض فى هذا الشأن كثيرا قبل الاسلام باعتبارات مختلفة لا داعى لذكرها خوف الاطالة . ولا بأس بذكر المناظرة التى دارت بين عالم دهري وأفلاطون المشهور . قال الدهري : لم أوجد الله العالم ؟ فقال أفلاطون : أوجده بطريق فيضه وكرمه . قال الدهرى : هلا كان فياضا فى الأزل ؟ قال أفلاطون : ما يوجد فيما لا يزال لا يصلح أن يوجد فى الأزل . قال الدهرى : هل هذا العالم يفنى ؟ قال أفلاطون : نعم . يفنى . قال الدهرى : حينئذ ينقطع فيضه وكرمه ؟ قال أفلاطون : يفنيه من الصيغة التى لا تصلح للدوام ليكسوه صيغة تصلح للدوام والاستمرار . يعنى أن حقيقة الموجودات لا تفنى ، وانما تفنى الصور ، ويبدلها الله تعالى بصور أخرى تتناسب مع الحياة الأخرى (يوم تبدل الأرض غير الأرض والسموات وبرزوا لله الواحد القهار) .

فانقطع الدهرى عن المناظرة وانصرف .

ولكنا معشر المسلمين نقول : ان الحكمة فى وجود العـالم هو وجود ذات الحق عز وجل لأنها لولم توجد عالما لتعطلت الصفات ، اذ من صفاته تعالى الجواد ، والخلاق ، والرزاق ، والمحيى ، والمميت وهكذا .

فلو لم يوجد الموجودات لما ظهرت آثار الصفات وانتفى وجوب كمال الذات : « كنت كنزا مخفيا فأحببت أن أعرف فخلقت الخلق فبى عرفونى » .

ولا تنس أن من تمام كمال الذات ، وجود الموجودات على حالتين من كل الوجوه . كالخير ، والشر . اذ لو كانوا على الخير الصرف لما عرفوه . اذ بضدها تتميز الأشياء . وهما الأصبعان الواردان فى الحديث الشريف . أى الصفتان المتقابلتان كالمنع والاعطاء والقبض والبسط والقوة والضعف ونحوها .

وكيف لا ، والله تعالى جامع الأضداد ، وليس فوق كماله كمال ينتظر . وحاشا أن يكون فى خلق الرحمن من تفاوت أو نقص (ان الله على كل شىء قدير) .

وثانيا : معرفة ما هو أول مبدع للصانع تعالت عظمته ؟

نقول : لا يخفى على كل ذى عقل سليم أن الموجودات هى آثار الصفات ، واشراق أنوار الأسماء ، ومن أخصها بنو الانسان الذى هو محل نظر الحق من هذا الخلق ، الذى جمع فيه الكمال بالقوة والفعل ، فكان الانسان بمقتضى تكوينه نزاعا الى المعرفة ، متشوقا الى استطلاع ما غاب عنه ، طامعا فى الوقوف على المسببات والأسباب . وهكذا الى ما لا نهاية .

ولما كان كذلك . فخالقه جل وعز ، لم يترك له شيئا مما تسعه مداركه الا ولفت نظره اليه ، وسهل له السبل الدالة عليه ، وخاصة أنه قد ضمّن له كتابه العزيز (تبيانا لكل شىء) (وتفصيل كل شىء) (ما فرطنا فى الكتاب من شىء) ومن أهم الأشياء معرفة المبدأ والمعاد .

ومن هنا قد أجمع العقلاء من العلماء على أن وجود شيء لا من شيء محال . فحينئذ لابد لهذا الوجود من أصل يرجع اليه عند النظر فى ذكر مبدأ الحوادث .

فيتعين علينا أن نقول : ان واجب الوجود الذى هو منشأ الآثار ، لابد له من ادراك وفعل . فلو لم يكن له ادراك لكان الأثر مجهولا مطلقا ، وطلب المجهول المطلق محال . ولو لم يكن له فعل ، لم ينشأ عنه أثر . فاذن اقتضاؤه للادراك والفعل أمر ذاتى له تعالى . وذلك هو المسمى بالحياة فى الواجب . وأما فى الممكن فقد ظهرت الحياة بحقيقة كلية جامعة لجميع الحقائق . بها تحقق كل موجود امكانى ، وبذلك يمكننا أن نقول هى الحقيقة الامكانية لكل ممكن هو فيها بالقوة والفعل — ليس فى الامكان أبدع مما كان — (فتبارك الله أحسن الخالقين) (ما ترى فى خلق الرحمن من تفاوت فارجع البصر هل ترى من فطور) .

المسألة الأولى

بيان كيف تطور مبدأ الحوادث للموجودات

لا يخفى على كل ذى عقل متعقل أن الله سبحانه وتعالى ، هو الذى أفاض على العارفين بما أهلهم لفهم ما ظهر من القرآن الحكيم وما بطن . ومن السنة المطهرة كذلك ، وذلك بما اهتدت اليه عقولهم من نصب الدلالات على ذلك . وبما أفيض عليهم من المعارف اليقينية فصارت لهم كالمشاهدات (ان فى ذلك لآيات لقوم يعقلون) فهم على مبدأ أمير المؤمنين على بن أبى طالب رضى الله تعالى عنه وكرم الله تعالى وجهه وقد صح عنه أنه قال حين سئل ، هل رأيت ربك ؟ كيف أعبد ربا

لم أره !! ومن الضرورى أن الله تعالى لا يرى بالأبصار ، وانما يرى بحقائق الايمان وانبساط نور اليقين .

ولهذا وجب علينا أن نبين ونقول : ان ذات الحق سبحانه وتعالى تامة وفوق التمام . ومعنى التمام أنه تعالى لا يحتاج إلى غيره فى تكميله وفوق التمام ، بمعنى أن عنده تعالى ما يفيض به ومنه على غيره . وذلك ما تسميه فضل الله . ومن كانت ذاته كذلك فهو كامل من جميع الوجوه ، وليس بعد كماله كمال ينتظر . اذ كل ما يجب له فهو له بالفعل وليس عند الله تعالى حصول بالقوة والا لاستكمل بالفعل وقلنا ليس له كمال ينتظر .

ولما وجبت له تعالى صفة الوجود وباقى صفاته تعالى ، اقتضى كماله أن لا تعطل هذه الصفات . فتجلى فأبدع حقيقة كلية ، جامعة لجميع الحقائق التى وجدت منها حقائق الكائنات ، مشتملة على ما هو كائن . فأفاض عليها من فضله الفاضل فوق الكمال فأنشأ منها ببديع صنعه واتقانه حقائق لكل ما سبق فى علمه تعالى أنه كائن . فكانت المرتبة الأولى بين الصانع والمصنوع ، والنسبة الأولى بين العابد والمعبود (ان كل من فى السموات والأرض الا آتى الرحمن عبدا) وأيضا مصدر الحقائق الأولية للتنزل فى هذا الوجود ، واليها ينتهى مقام العبودية فى الترقى والصعود (وما خلقنا السموات والأرض وما بينهما الا بالحق) فاذن تكون تلك الحقيقة هى العبد المطلق ، الذى تصح اضافته الى الله تعالى على الحقيقة ، وبها تحققت عبدية كل عبد ، فهى الحجاب الأعظم ، والوسط الجامع ، والحق الموجود الذى تحقق به كل موجود . وتكون أيضا النفس الرحمانى المنبسط على أعيان الموجودات (كتب ربكم على نفسه الرحمة) وفى الحديث القدسى « رحمتى غلبت

غضبى » وأيضا هى صورة رحمة الله تعالى الواسعة (ورحمتى وسعت كل شىء) .

ولا يخفى عليك ، بل يجب عليك ، أن تعتقد أن تلك الحقيقة المبدعة للحق عز وجل جعلها كاملة بمقتضى كمال ذاته ، متصفة بتجميل صنعه وأفعاله . لأنها المرتبة المتحققة بحقائق أسمائه وصفاته (ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها) (أيّا ما تدعو فله الأسماء الحسنى) وفى الحديث « ان لله تسعة وتسعين اسما من أحصاها دخل الجنة » ولا معنى لاحصائها الا التحقق بها لا حفظها وتلاوتها كما فهمه بعض القاصرين .

ولعلك فهمت من كل ما تقدم أن ذات الحق عز وجل وصفاته وأسماءه وكمالاته لا تتناهى . فكذلك يجب عليك أن تعتقد أن أول صادر عن الحق جل وعلا فهو كذلك لا يتناهى . (فخلق كل شىء فقدره تقديرا) (ويخلق مالا تعلمون) .

وحيث كانت كذلك أصلا لكل موجود ، وكانت المرتبة الأولى الجامعة لحقائق الوجود ، والحجاب الأعظم بين الحق والخلق ، واليها تنزلات الحق للخلق بالقدر الممكن للموجود ، واليها ينتهى الكمال فى الوجود . فمن هنا كانت أكمل خلق الله ، فأول خلق الله ، فأول عبد الله ، فأول عارف بالله ، فهى أول مرتبة العبودية . فأبدع منها الأنوار النورانية للموجودات (الله نور السموات والأرض) وأبدع منها الأرواح القدسية النورانية (ألست بربكم قالوا بلى) فالأنوار الكلية المحيطة العالمية ، (وكان عرشه على الماء) فمادة الحياة الكونية (وجعلنا من الماء كل شىء حى) فالزمان والمكان (فقضاهن سبع سموات فى يومين وأوحى فى كل سماء أمرها) فالحقائق الروحانية (لا يعصون الله ما أمرهم) فالجواهر الأصلية المنيرة الكونية (والشمس تجرى لمستقر لها)

(والقمر قدرناه منــازل) (وزينا السماء الدنيا بمصابيح وحفظا) فالأجسام النورانية (وكل شيء فصلناه تفصــيلا) فالأجسام النارية (والجان خلقناه من قبل من نار السموم) فالأجسام المادية (أو لم ير الذين كفروا أن الســموات والأرض كانتا رتقا ففتقناهما) فالعوالم السفلية (والأرض بعد ذلك دحاها أخرج منها ماءها ومرعاها والجبال أرساها) فمستلزماتها (متاعا لكم ولأنعامكم) فالمولدات الثلاث الجماد والنبات والحيوان (والله أنبتكم من الأرض نباتا) ومثل الحيــوان جميع الدواب والطيور وغيرها من مادة الأرض (وما من دابة فى الأرض ولا طائر يطير بجناحيه الا أمم أمثالكم) .

هكذا سنة الله تعالى فى تطور مكوناته بمقتضى نص كتابه العزيز ، وبيان سنة نبيه الكريم ، على ما سيأتى فى الحديث الشريف الذى رواه الثقــاة عن سليمان الفــارسى وقد رووه أيضــا من طــرق شتى ، المفصل فيه الترتيب هكذا . كما لا يخفى على كل ذى قلب سليم ، وعقل راجح ، وقد أجمع عقلاء الأمة عليه سلفا وخلفا . راجــع جميع كتب التفاسير لكتاب الله العزيز ، وشراح الأحاديث المطهرة ، فينور الله تعالى بصيرتك فتقف على معنى كيف تطورت هذه الموجودات ؟

ومن هنا تعرف أن هذه الموجودات قد ظهرت علىأتم نظام ، وأحسن ترتيب بحكم عالية حتى تجلت تلك الحكمة فى أعيان الممكنات بما حارت العقول فى ادراكه ، وحسن ترتيبه ، ومراعاة المناسبات والنسب ، وربط الأمور برقائق اقتضتها الحكمة وحسن الاختيار . والحكمة صفة من صفات الكمال الواجب لذاته تعالى . وحسن الاختيار الاتيان بالفعل على أتم الوجوه التى يجب أن تكون له تعالى . (ان الله على كل شيء قدير) (ذو العرش المجيد فعال لما يريد) .

المسألة الثانية

فى معرفة اسم تلك الحقيقة وما هى ؟ ومن بحث عن معرفتها

اعلم يا أخا العقل والرشد ، أن الله سبحانه وتعالى خلق الانسان ، وعلمه البيان ، مجبولا بفطرته على حب الاستطلاع وخاصة لما غاب عنه ، فتجده دائما يذكر باحثا عن أصول الأشياء وفروعها ، وخاصة ان الشيطان عدوه يفتح له أبواب الشر من طريق الخير دائما حتى يلقيه فى الردى والهلاك من حيث لا يشعر ظنا منه أن ذلك من طريق العلم والمعرفة . كما جاء فى الحديث الشريف المروى عند البخارى عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « يأتى الشيطان أحدكم فيقول : من خلق كذا من خلق كذا حتى يقول من خلق ربك ؟ فاذا بلغه فليستعذ بالله ولينته » . هذا لغير العالم . وأما العالم فيقول جميع المولدات وما فيها وما معها وما عليها وما هى بها من الأرض. والأرض من الماء بنص القرآن الكريم والسنة المطهرة . والماء من أين ؟ وكذا السموات وما فيها من أين ؟ ثم القلم واللوح والكرسى والعرش كلها حوادث وهى من أين أيضا ؟ فلا بد لهذا كله من مبدأ وما هو ذلك المبدأ ؟ وما حقيقته ؟ وكيف هو ؟

وصار هذا مثار معارك الباحثين ، وقطب دائرة المفكرين قديما وحديثا . ولقد تكلم الفلاسفة فى هذا الشأن قبل الاسلام كثيرا ، وكلهم اتفقوا على أنها حقيقة واحدة مرجع جميع الحقائق اليها . بآراء شتى وطرق مختلفة وكل سماها بما تحقق له فيها . بقدر ما وسعه علمه حتى سموها بأسماء كثيرة .

منهم الحكماء قبل الاسلام سموها بالنفس الكلية التى اليها ترجع حقائق الأنفس الوجودية وذلك لما يعلمونه من أنه لا حياة لموجود

الا بالنفس ، والموجودات أحياء ، والحياة فى كل فرد منها بحسب تكوينه . ولا يخفى أن النفس عندهم عبارة عما به الحياة فى جميع المولدات وفى الحيوان والدواب والطيور وغيرها الدم السائل .

ومنهم الفلاسفة أيضا قبل الاسلام قالوا : انها الروح الكلى الذى ترجع اليه حقائق أرواح الموجودات . لأنه من المقرر عقلا لاحياة لموجود الا بالروح ، وفى كل فرد منه روح بحسب تكوينه وايجاده .

ومنهم من سماها بمبدأ الخلق لأنه لابد لهذا الوجود من أصل يرجع اليه عند ذكر سلسلة وجود الحوادث .

ومنهم من سماها بهيولة الهيولات لأن لكل شيء هيولة أى مادة .

ومنهم من سماها بصورة الصور ، أى حقيقة الصـور والأعيان الموجودة فى الخارج .

ومنهم من سماها بمبدأ العبودية ، لأنه ليس هناك الا الله تعالى . ومبدأ التكوين عبد له سبحانه وتعالى فتكون النسبة بينهما العبودية .

ومنهم من سماها بالعقل الأول . لأنه هو الذى حصـل به العلم وانكشف له به المعلوم . فيكون هو النور الذى حصل به التمييز بين الظلمة والنور .

ولا غرابة فى ذلك اذ قال تعالى . (انا خلقنا الانســان من نطفة أمشاج نبتليه فجعلناه سميعا بصيرا انا هديناه السبيل اما شاكرا واما كفورا) .

المسألة الثالثة

الكلام على هـــذه الحقيقة عند علماء الإسلام

لما كان لعلماء الاسلام سند قوى ، وركن ركين ، (لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، تنزيل من حكيم حميد) وبيان السنة المطهرة

لنبيه وأمين وحيه صلى الله تعالى عليه وسلم الذى لاينطق عن الهوى .
واجماع خيار أمته رضوان الله تعالى عليهم .

فلا يعول على فهم علم من العلوم ، ولا مسألة من المسائل مهما دقت الا وكان الأصل فيها القرآن العزيز الذى جعله سبحانه وتعالى جامعا لجميع علوم الأولين والآخرين ، مصداق قوله تعالى (تبيانا لكل شىء) (وتفصيلا لكل شىء) (ما فرطنا فى الكتاب من شىء) أو السنة المطهرة التى قال فيها من لاينطق عن الهوى ، فى الحديث المروى عند الامام أحمد عن أبى رافع أن رســـول الله صلى الله عليه وسلم قال « لأعرفن الرجل منكم يأتيه الأمر من أمرى أنا أمرت به أو نهيت عنه وهو متكىء فى أريكته فيقول ما ندرى ماهذا عندنا كتاب الله تعالى وليس هذا فيه ألا وانى أعطيت القرآن وعشرة أمثاله » . أو اجماع خيار الأمة الذين حث الله تعالى عباده على اتباعهم ، وأكد فى النظر الى ذلك ووعد المخالف لهم الوعيد الشديد . ولذا لا توجد حقيقة فى حكم من الأحكام الشرعية ولا مسألة من المسائل العلمية الا وأصلها الكتاب العزيز والسنة المطهرة .

وفى هذا المقام قد أجمع العقلاء من علماء الأمة على أن جميع الآى التى نزلت فى بيان وصف أول مخلوق للحق عز وجل هى حقيقة واحدة . تشمل : النفس والروح والعقل الذى هو النور ، وهى أول عبد لله تعالى وأول من عرف الحق سبحانه وتعالى من خلقه ، وهى مبدأ الخلق . وتفصيل الآيات تفصيل لمبدأ التكوين وتطوراته . أولا نورا ثم نفسا ثم روحا ، وهكذا الى تنزلات المكونات من الموجودات . وقد سماها علماء الاسلام بأسماء كثيرة أيضا باعتبارات تفهمات الباحثين .

فمنهم من قال هو التعيين الأول ، ومبدأ الظهور ، ومظهر التجلى ،

والوحدة الحقيقية ، وأحدية الجمع ، وحقيقة الحقائق ، والحقيقة الكلية ، وهيولى الهيولات ، وسر أنوار التجليات ، والحقيقة المحمدية ، والحقيقة الأحمدية ، والحق المخلوق به ، وشجرة الأصل النورانية . وغير ذلك من التعبيرات الاصطلاحية عند علماء الصوفية المشار بها الى ذلك المعنى . واختلاف التعبيرات انما هو بالنظر الى اختلاف الاعتبارات الملحوظة فى ذلك المعنى لا بالنظر الى اختلاف حقيقة المعنى لأنه شىء واحد بالذات كما ستعرفه .

المسألة الرابعة

معرفة اسم تلك الحقيقة بإجماع علماء الإسلام

لا يخفى على كل ذى عقل سليم ، أن أهل الحق أجمعوا على أن حقائق الأشياء ثابتة ، والعلم بها متحقق . مصداق قوله تعالى (وما خلقنا السموات والأرض وما بينهما الا بالحق) واقول الصادق المصدوق صلوات الله تعالى وسلامه عليه فى الحديث المروى عن الترمذى والطبرانى عن الحرث بن مالك الأنصارى « مر برسول الله صلى الله عليه وسلم فقال له كيف أصبحت يا حارث ؟ قال أصبحت مؤمنا حقا . فقال صلى الله عليه وسلم : أنظر ما تقول فان لكل شىء حقيقة . فما حقيقة ايمانك ؟ قال : عزفت نفسى عن الدنيا فأسهرت ليلى ، وأظمأت نهارى ، وكأنى أنظر الى أهل الجنة يتزاورون فيها ، وكأنى أنظر الى أهل النار يتصارخون فيها — قال عليه الصلاة والسلام يا حارث عرفت فالزم ثلاثا » .

ولما كان مركز دعائم العلوم والمعارف الدينية والدنيوية والأخروية من المبدأ الى المعاد « القرآن الكريم » . و « السنة المطهرة » فقد وجّه

الله تعالى رغبات الباحثين فى هذا الشأن من خيار علماء الأمة حتى وصلوا الى معرفة حقيقة الحقائق ، وعليها أجمعوا بالبراهين العقلية المستفادة من الأدلة النقلية الكتاب والسنة ، على أن حقيقة الحقائق كلها هى حقيقة سيدنا محمد بن عبد الله صلى الله تعالى عليه وسلم .

المسألة الخامسة

محمد بن عبد الله صلى الله تعالى عليه وسلم

وانى أذكر لك نبذة مستخلصة من الكتاب والسنة لما اشتملت عليه المكونات ، اذ ما من موجود الا وله حقيقة أزلية ليسهل عليك فهم تلك الحقيقة .

فأقول : ان العاقل البصير الذى نوّر الله تعالى بنور الايمان قلبه ، وكشف الغطاء والرين عنه ، يعرف أن كل موجود له حقيقة أولية ، لما بان من آى القرآن ، واتضح من السنة ، وخاصة بنى آدم الذين هم محل نظر الحق من هذا الخلق ، الذين خلق لهم ما فى السموات وما فى الأرض ، وسخرها لهم كما أفادنا القرآن الكريم بذلك ، وبيّن لنا أن كل فرد من أفرادهم كانت له حقيقة أولية . (واذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم) فعلى ما قدمنا بما عليه اجماع المسلمين بأن هذا العهد كان أزلا ، وقبل خلق السموات والأرضين والمكونات أجمعين ، كما هو مفاد الكتاب والسنة . وأيضا بينت لنا السنة المطهرة فى الحديث الصحيح « ان لكل حق حقيقة » الحديث . وفى الحديث الآخر المروى عند جميع أصحاب السنن والمسانيد . « ما من نفس منفوسة الا وكتب عملها وأجلها » الحديث .

ولا يخفى أن حقائقهم بظاهر الكتاب والسنة لم تكن على حالة

واحدة كما هى سنة الحق عز وجل فى مكوناته ، فلم يجعل اثنين متحدين ألبتة ، اذ لا ضرورة الى الثانى . كما هو شأن القادر التنويع فى الابداع ، وما عرف ذلك التفاضل الا بلفت نظر عباده الى ذلك فى صريح القرآن وبيان السنة ، وما عرف ذلك الا بوجود الموجودات التى نصبها دلائل على عظمته ، وكمال حكمته . اذ جعل بعضها أرفع من بعض فى كل شىء من ذلك الموجود الدال على معرفة عظمة الملك المعبود . وهى العوالم العلوية والسفلية وما أودع فيها من الأسرار الالهية ، والرعايات الربانية ، والمميزات الحكمية التى بها حصل التفاضل والتميز بعضها عن بعض . اذ ما من نوع من تلك الأنواع ، أو جنس من تلك الأجناس ، أو فرد من أفرادها الا وبعضه أعلى من بعض فى التفضيل والتمييز . وهكذا الحال فى كل فرد على حدته الى أن ينتهى بأعلى درجة فيه بالفضل والتميز . حتى صار لا يشاركه فيها غيره . فانك ترى هذا فى الجماد والنبات والدواب والطيور والوحوش حتى عالم البحار . وهذا هو المشاهد بالعيان وبالعقل والبرهان .

فاذا نظرت الى جميع أجناس وأفراد وأنواع الموجودات باعتبار مجموعها وجميعها تجدها كذلك لابد أن ينتهى الكمال فيها الى واحد هو أعلا الموجودات كلها . وهو ابن آدم الذى لم يجعل الحق عز وجل له معادلا من كل ما فى الوجود . بنص الكتاب والسنة .

وأيضا اذا نظرنا الى أفراد ذلك الانسان ، وجدنا درجات التفاضل بينهم متفاوتة الى أن ينتهى ذلك التفاوت والتفاضل الى حد الأنبياء والمرسلين . وأيضا تجد التفاضل بينهم كذلك ، فلابد أن ينتهى الكمال والفضل الى فرد واحد . وقد اتضح لنا ولكل عاقل باحث ومفكر ناقب ان ما حققه عقلاء الأمة الاسلامية من جميع البيانات التى أبانها الحق

سبحانه وتعالى لجميع عباده المؤمنين فى كتابه المبين الذى لم يفرق فيه تعالى من شيء من مبدأ الحوادث الى ما لا نهاية لها ، وخاصة بنى آدم الذين هم محل نظره من خلقه تبارك وتعالى مع بيان مستلزماتهم من شئونهم الدنيوية ، وقد وجدوا أن أفرادها متفاوتة الوضع فى الهيئة والصفة والتكوين ، وان فى بعض أفرادها فردا واحدا هو أرقى جميع أفراد نوعه وقد استدلوا منها على أن مبدع الكائنات جل وعلا جعل هذا الفرد العالى لا يعلوه شيء فى نوعه وكانت لهم هذه النظرية من احدى الطرق التى توصل الى معرفته تبارك وتعالى ، ولذا أجمعوا على أن الله تعالى خلق كل شيء لابن آدم وسخر تبارك وتعالى له كل شيء ، ولم يجدوا فى جميع مكوناته عز وجل أفضل من حضرته صلى الله تعالى عليه وسلم ، لما خصه سبحانه وتعالى من أنواع الفضل والمميزات التى لم يصل اليها أحد المفضلين من الأنبياء والمرسلين الذين هم أفضل الآدميين الذين هم أفضل المخلوقين أجمعين . وقد ذكرنا لك ان الأنبياء والمرسلين قد بين لنا سبحانه وتعالى رفع بعضهم على بعض درجات بمقتضى حكمته العالية وجعل فيهم طبقة هى أرقى الدرجات وهى درجة أولى العزم التى ينالون بها الشفاعة لعباده فى الآخرة ، كما أبان لنا سبحانه وتعالى ذلك فى كتابه العزيز ، ولكمال حكمه الباهرة ، أن جعل أرقاهم واحدا ، وهو حضرته صلى الله تعالى عليه وسلم ، لتقدمه فى الذكر الحكيم فى الآيتين اللتين تضمنتا ذكرهما خاصة صلوات الله تعالى وسلامه عليهم أجمعين ، فى سورة الأحزاب قوله تعالى (واذ أخذنا من النبيين ميثاقهم ومنك ومن نوح وابراهيم وموسى وعيسى بن مريم وأخذنا منهم ميثاقا غليظا) وفى سورة الشورى (شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا والذى أوحينا اليك وما وصينا به ابراهيم وموسى وعيسى أن

أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه كبر على المشركين ما تدعوهم اليه الله يجتبى اليه من يشاء ويهدى اليه من ينيب) وأولوا العزم هم أشد الناس بلاءا فى هذه الحياة الدنيا . وبالضرورة حيث كان أفضل ممن هم أفضل المفضلين الذين هم أفضل الخلق أجمعين ، فليس أرفع منه فضلا بين الأنبياء أجمعين على ما قرره أفاضل الأمة بقولهم : حيث كان أفضل رسل الله كان أفضل خلق الله ، على ما سيتضح لك بالبراهين العقلية والنقلية .

والا فانى أتحدى وأقول بالصريح الواسع لكل غبى ، ألد ، جموح ، هات من هو أفضل منه ، ومميزاته تفوق عنه ، أو تساويه ، ونصدقك بأنه أفضل منه ومقدم عليه فى الفضل حتى تكون حقيقته حقيقة الحقائق !!! المستفادة من قوله تعالى (وما خلقنا السموات والأرض وما بينهما الا بالحق) أى من الحق على ما قرره الأفاضل العارفون العاقلون ، على ما بينا وسنبين ان الانسان له حقيقة أولية ، وأثبتنا ذلك ونثبت بالدليل العقلى والنقلى ، وما وجد الآن أحد الا كان على مقتضى حقيقته الأولية والتقادير الالهية الأزلية ، وما هو موجود الآن كان على ما قضاه الله تعالى أزلا (ذلك تقدير العزيز العليم) (وكان أمر الله قدرا مقدورا) . وفى الحديث المشهور الذى سأل فيه جبريل عليه السلام النبى صلى الله تعالى عليه وسلم الذى منه الايمان فقال صلى الله تعالى عليه وسلم « الايمان أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وأن تؤمن بالقدر خيره وشره » وفى رواية « حلوه ومره » الحديث .

الفصل الخامس

فى إقامة البرهان العقلى والنقلى على أن حقيقته صلى الله تعالى عليه وسلم حقيقة لجميع حقائق الموجودات

نقول : بتوفيقه تعالى قد أسلفنا للقارىء أن البرهان العقلى مقدم على البرهان النقلى ، اذ هو مستفاد منه ، وها هو الدليل العقلى الذى لا يمكن لبشر ، بل ولا لمخلوق نقضه وهو أن تقول : ان أفراد النوع الانسانى فى كل زمان محصورة بالعدد ، والأمر فيها دائر بين كامل وأكمل ، ضرورة أن الناقص داخل فى الكامل ، ولا سبيل الى كامل ثان معه فى زمنه ، لأنه يلزم تساويهم فى الكمال واتحادهم فى الصفة ، فيكون أحدهم عين الآخر لعدم التفاوت فوجب أن يكون الأكمل فى كل زمان واحدا ، ولا فرق فى ذلك بين زمن وزمن . وهكذا لو جمعنا أيضا كوامل كل زمان وجعلناهم دائرة واحدة فالكمال فيهم أيضا لا يتحد على ما قدمنا حتى ينتهى الكمال الى واحد ، ولو جمعنا هذا الكامل الى زمن النبوة لوجدنا النبوة أكمل بالضرورة .

وعرف هذا من التنزيل حيث قال تعالى (ورفعنا بعضكم فوق بعض درجات) (يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات) (ولقد فضلنا بعضكم على بعض فى الرزق) (انظر كيف فضلنا بعضهم على بعض) .

هذا فى أفراد عامة الانسان . وأما من اختارهم الله تعالى رسلا مبشرين ومنذرين وأنبياء مكرمين الى خلقه .

فنقول : ما أرسل الله تعالى رسولا ، الا وجعل استعداده بقدر

البشر المرسل اليهم . وهذا هو أصل التفاوت فى التفضيل . فاذا جعلنا الأنبياء والمرسلين فى دائرة واحدة وجدنا أن الكمال فيهم ينتهى الى كامل واحد أيضا ، ضرورة ان الأمر دائر بين كامل وأكمل ، وينتهى الكمال أيضا الى واحد لا أكثر ولا سبيل الى الثانى ، لأنه يلزم تساويهما فى الكمال فيكون أحدهما عين الآخر ضرورة عدم التفاوت ، فوجب أن يكون الأكمل فى الأنبياء والمرسلين واحدا . هذا هو البرهان العقلى الذى عرف من التنزيل الالهى قال تعالى (تلك الرسل فضلنا بعضهم على بعض) (ولقد فضلنا بعض النبيين على بعض) .

اذا عرفت أن التفضيل فى أفراد الانسان بالمميزات التى اختص الحق عز وجل بها بعض الأفراد دون بعض . ولم تعرف ميزة أحدهما عن الآخر الا بها فقد بان لك أفضلية العباد بعضهم على بعض .

وأما الأنبياء والمرسلون فقد جعل الله تعالى مميزاتهم سعة شرعة كل ومنهاجه . لأنا قدمنا أنه ما أرسل الله تعالى رسولا الا وأعطى من السعة العلمية بقدر البشر المرسل اليهم .

وغير خاف أن جميع الأنبياء والمرسلين صلوات الله تعالى وسلامه عليهم آجمعين كان الواحد منهم يرسل الى قومه خاصة وسيد العالمين أرسل للناس كافة (وما أرسلناك الا كافة للناس بشيرا ونذيرا) وفى الحديث « أعطيت خمسا لم يعطهن أحد قبلى من الأنبياء : نصرت بالرعب من مسيرة شهر ، وأحلت لى الغنائم ، وكان النبى يرسل لقومه خاصة وأرسلت للنـــاس كافة ، وجعلت لى الأرض مسجدا وتربتها طهــورا فأيما امرىء من أمتى أدركته الصلاة فليصلها حيث ذكرها وأعطيت الشفاعة العظمى » .

فقد ظهر أن حضرته صلى الله تعالى عليه وسلم أعلم الأنبياء بالله ،

لأنه أعظمهم استعدادا ، وأوسعهم شريعة ، وأتمهم نظاما ، وكتابه جمع الكتب السماوية . قال تعالى (وانك لعلى خلق عظيم) (ما فرطنا فى الكتاب من شيء) وفى الحديث « بعثت لأتمم مكارم الأخلاق » « أنا سيد ولد آدم ولا فخر » وحيث كان أفضل رسل الله ، كان أفضل خلق الله ، وحيث كان أكمل خلق الله واليه ينتهى الكمال الوجودى الامكانى ، ولم يوجد من هو أكمل منه الا الله تعالى . فاذن حقيقته أكمل الحقائق ، والكمالات مجملة فيها ، وجميع الحقائق داخلة تحتها ، ضرورة دخول الكامل فى الأكمل ، والتفضيل لا يعقل الا من الاجمال . فالعالم كله من عال وسافل راجع الى حقيقته صلى الله تعالى عليه وسلم . ونعنى بذلك أن تكون حقيقته صلى الله تعالى عليه وسلم أول صادر عن الحق سبحانه وتعالى وهو الحجاب الأعظم بين الله والخلق ، والواسطة العظمى فى الوجود الامكانى ، فتلك الحقيقة هى صورة فاعلية الحق سبحانه وتعالى وادراكه ، أوجدها تعالى لا على مثال سبق . والايجاد لا على مثال سبق يسمى بالابداع . وهذه الحقيقة قد أوجد الله تعالى فيها القابل والمقبول . والقابل يسمى بالحقيقة الأحمدية . والمقبول يسمى بالحقيقة المحمدية . والأحمدية حقيقة لابد منها فى نظام التكوين . اذ التكوين لا يكون الا فى قابل . وأما الابداع فلا يحتاج الى ذلك ، لأنه صورة فاعلية الحق جل شأنه . وهذه الحقيقة هى أول مخلوق وبقية المخلوقات انما تعقل بعدها ، فهى المتنزلة فى جميع الحقائق الكلية بمعنى أنها مبدأ كل حقيقة تالية . والمبدأ هو ما يتوقف وجود غيره على وجوده ، فهى المتنزلة فى النفس الكلية وبواسطة النفس تنزلت الى عالم المادة . ومعنى تنزلها أنها هى المتصورة بكل صـــورة من الصور . ولا تعقل تلك الصور ولا تكون بها المميزات الا منها على ما ستعلم قريبا من الكتاب والسنة .

لعلك قد ظهر لك من البرهان العقلى معرفة تلك الحقيقة .

وأما الدليل النقلى فنقول :

غير خاف على ذوى البصائر النيرة ، أن الحق سبحانه وتعالى بيّن فى كتابه العزيز أحوال عباده البارزين من مبدئهم لنهايتهم من أبينا آدم عليه السلام الى سيدنا عيسى المسيح عليه السلام . وما كانوا عليه من المميزات الالهية التى خصهم بها سبحانه وتعالى دون غيرهم من بنى البشر فى كتابه العزيز . فكيف لا يذكر ولا يبين حال أبرز البارزين ؟ وما خصّه به من المميزات الالهية ، والتطورات الكونية ، بأنه مغاير من كل الوجوه التى لم يشاركه فيها أحد . لأنه سبحانه وتعالى ذكر عن أحوال البارزين ممن خصّهم بهذه المميزات صلوات الله تعالى وسلامه عليهم أجمعين من مبدأ وجودهم فى هذه الحياة الدنيا وذكر لكل مميزه . وأما حضرته صلى الله تعالى عليه وسلم فقد بيّن أحواله كلها من المبدأ للمعـــاد من كونه حقيقة أولية ثم تطورا فى الوجود من التنزلات فى المكوّنات الى وجود كل موجود من بدء البشر الى مالا نهاية من تقلبه فى الساجدين ، وما كان عليه فى الآدميين ، وكيف هـــو فى الأنبيـــاء والمرسلين ؟ وما هو صلى الله تعالى عليه وسلم فى الخلق أجمعين ؟ مع ما كان عليه من بشرية الآدميين . ومصدر ذلك كله التنزيل الحكيم ، والسنة المطهرة ، واجماع العلماء من المسلمين .

أما الكتاب العزيز فقد قال تعالى (قل ان كان للرحمن ولد فأنا أول العابدين) فعلى جميع أوجه التفاسير ، وآراء المفسرين فقد وصفه جل ذكره بالأولية ، ولا يوصف بالأولية حتى فى النفى الا من هو الأول . ولا يخفى عليك أن الوجود كله عبد ورب على ما قدمنا . فالعبودية

مطلقا حادثة ، فلابد لها من أول . فعلى هذا البيان أنه صلى الله تعالى عليه وسلم أول عبد لله ، أول عارف بالله ، وأول من يتخذ لمكانته وقربه لو كان ولدا لله ، أو أول رافض لذلك الاعتقاد الفاسد ، وفيهم ومن بينهم من كان ينكر عليهم هذا الاعتقاد الفاسد . فحضرته صلى الله تعالى عليه وسلم أسبق الرافضين لتلك العقائد الفاسدة . راجع حاشية الجمل على الجلالين وغيرها من المفسرين للقرآن الكريم . ومن قال انه صلى الله تعالى عليه وسلم الحق المخلوق به ، وأن حقيقته أصل لجميع حقائق المكونات أخذا من قوله تعالى (وما خلقنا السموات والأرض وما بينهما الا بالحق) راعى وضع اللغة العربية التى نزل بها القرآن ، فقال ان الباء بمعنى مِنْ أى وما خلقنا السموات والأرض وما بينهما الا من الحق . وفى كلام العرب له الشاهد على ذلك :

شربنا بماء البحر ثم ترفعت   متى لجج خضر لهن نئيج

ويشهد له أيضا بيان السنة المطهرة على ما سيأتى قريبا .

ولا يخفى عليك أن تلك الحقيقة هى نور . وباعتبار ذلك الوصف قال تعالى (قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين يهدى به الله من اتبع رضوانه سبل السلام) قال العلامة الألوسى فى تفسيره على هذه الآية ، وعند قوله تعالى (الله نور السموات) : قد أشار الحق عز وجل عن حقيقته الذاتية التى أوجد بها فى كلامه العزيز ، قد جاءكم من الله نور أبرزته العناية الالهية من مكامن العماء . وكتاب خطه قلم البارى فى صحائف الامكان ، جامعا لكل كمال ، وهما اشارة الى النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، ولذلك أفراد الضمير فى قوله تعالى (يهدى به الله) أى بواسطته من اتبع رضوانه اهـ منه . وقال تعالى (الله نور السموات والأرض مثل نوره) الآية . راجع تفسير العلامة الألوسى

عليها فتجدها خير كفيل فى بيان كل ما جاء فى معنى النور ، وفى كل ما يسمى بالنور قبل الاسلام ، وفى الاسلام ، وان لم يكن فى القرآن الا هذه الآية لكفى . وقد كفلت على ما قال العلامة الألوسى فى تفسيره ببيان أن الله هو النور الأعظم الأعم الأشمل . وأن حضرة نبيه صلى الله تعالى عليه وسلم هو النور المظهر الذى عرف منه وبه الحق عز وجل . وراجع أيضا كبار مفسرى القرآن الكريم على هذه الآية . هذا ولولا خشية الاطالة لجئتك بجميع ما جاء بخصوصه صلى الله تعالى عليه وسلم فى الكتاب العزيز ، وما بينه أهل المعرفة من المحققين المفسرين له من ذلك قوله تعالى (ويسألونك عن الروح) أى الكلى الذى هو روح الأرواح (ونفس وما سوّاها) أى النفس الكلية (وما يعقلها الا العالمون) فالعقول أيضا مخلوقة له تعالى لأنه الخالق للمعانى والصور فلابد لها من أصل أيضا . وفى قوله تعالى (كما بدأنا أول خلق) أى بالابداع والايجاد . وناهيك بقوله تعالى (ورفعنا لك ذكرك) روى أصحاب السنن عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « أتانى جبريل عليه السلام فقال ان ربك يقول أتدرى كيف رفعت ذكرك ؟ قلت الله أعلم قال اذا ذكرت ذكرت معى » .

قال شراح الحديث هى لا اله الا الله لا تتم الا بمحمد رسول الله . ولكنى أقول ان هذه جزئية من جزئيات الذكر وهو كلام حق غير أن الأمر أوسع من ذلك . ولا بأس علينا ان قلنا ان معناه اذا كنت مظهر فاعليتى وبحقيقتك ظهرت فاعليتى ، وليس لعارف أن يعرفنى الا بك من مؤمن وغير مؤمن ، لأنك الحجاب الأعظم ، والوجه الذى ظهرت به لخلقى ، فلا يذكرنى ذاكر الا وأنت معى . وبالجملة ليس لموجود أن يعرف الله تعالى الا به فى كل الأزمنـة والعصور أيا كانت أديانهم

ومقاصدهم . فأنت فى الممكنات الأول والظاهر والباطن وهى خلعتى عليك .

لأن ذكر الله تعالى قد يصدر من المؤمن والكافر . أما من المؤمن فمسلّم ، وأما من غيره فلا يكون معه لأنه لا يشمله عمـوم الحديث القدسى . اذن فلا يسعنا الا أن نقول : الذكر بمعناه الأعم وهو الحمد أو الشكر على أحد معنييه وهو الحمد وهما يصدران من المؤمن وغيره فى السراء والضراء والعسر واليسر . فيكون ذكره تابعا لذكر الله عز وجل مقترنا به مصاحبا له .

لأن الحمد فى عرف الشرع فعل ينبىء عن تعظيم المنعم بسبب كونه منعما على الحامد أو غيره . ولا شك أن هذا مشترك بين المؤمن وغيره . اذ العباد يحمدون الله تعالى على كل حال لما ينالهم من خير أو شر فى عسر أو يسر وضر ونفع . فتراهم دائما على هذا الحال حامدين فاذا كان من المؤمنين فيكون بلفظ الحمد ، وان كان من غيرهم فتارة يكون بلفظ المدح وهو الثناء على الله بما ألمّ به . والمدح وهو الثناء بمعنى الحمد ، بل قيل هو أعم من الحمد ، وتارة يكون بلفظ الشكر على الحال التى ألمت به ، وهو بمعنى الحمد أيضا ، والحمد معناه الثناء الكامل الذى يستحقه سبحانه وتعالى بأجمعه ، اذ له الصفات العلا .

وفى عرف اللغة نقيض الذم ، تقول حمدت الرجل أحمده حمدا فهو حميد ومحمود . والتحميد : أبلغ من الحمد . والمحمد الذى كثرت خصاله المحمودة قال بعضهم : الى الماجد القرم الجواد المحمد .

ومحمد : علم منقول لا مرتجل من اسم مفعول المضعف مشتق من الحمد الذى هو ضد الذم ، سماه به جدّه عبد المطلب بالهام من الله

تعالى ليكون على وفق تسمية الله تعالى له به قبل الخلق بألفى عام على ما ورد عند أبى نعيم ، وليطابق اسمه صفته لكثرة خصاله المحمودة ، ورجاء أن يحمده أهل السموات والأرض . وقد حقق الله رجاءه .

ومحمد أبلغ من محمود باعتبار فعليهما وان تساوى الاسمان فى عدد الحروف ، اذ الأول من الثلاثى المضعف ، والثانى من الثلاثى المجرد وهذا الاسم الشريف هو أشهر أسمائه صلى الله تعالى عليه وسلم ، وذكره فى القرآن منكرا دون غيره لشرفه ، اذ هو مشتق من اسمه تعالى كما قال حسان رضي الله تعالى عنه :

وشق له من اسمه ليجلّه * فذو العرش محمود وهذا محمد .

فقد ظهر لك أنه لا يحمد الله تعالى حامد من عباده بأى لفظ يكون معناه الحمد الا ويكون اللفظ الشريف مشتملا على اسمه صلى الله تعالى عليه وسلم وعلى هذا يكون معنى الحديث القدسى « لا أذكر من أى عبد من عبادى الا وكان ذكره لى مشتملا على ذكر اسمك معى يا محمد » ويكون هذا المعنى هو المراد بدلالة عموم اللفظ عليه وعلى هذا يكون هذا المعنى هو ما تضمنه اللفظ القرآنى بالصراحة باسمه الشريف صلى الله تعالى عليه وسلم بأحسن لفظ وأوجزه وأبلغه وأعجزه هذا ما نطق به الكلام العزيز اجمالا وتفصيلا .

ومن الدليل النقلى ما ورد فى السنة المطهرة فنقول :

أما ما ورد عنه صلى الله عليه وسلم فى صحيح السنة المطهرة من الأحاديث الصحيحة المروية عند أصحاب السنن المعتبرة فى بيان أصل تلك الحقيقة ، وتطورات التكوين الربانى لها أزلا وأبدا لأن هذا من أعلى دواعى التبيين وأرقى مراتب التفصيل فقد روى البخارى من حديث

عمران بن الحصين رضى الله عنهما أنه صلى الله عليه وسلم قال « كان الله ولا شيء معه ، حجابه النور لو كشفه لأحرق سُبحات وجه ما انتهى اليه بصره » قال الألوسى : والنور هو الله تعالى وهو الظاهر بذاته ، والمظهر لغيره فنور الأنوار غير متناه الشدة ، وما سواه تعالى أنوار متناهية الشدة . فمنه النور الكلى الذى خلق الله منه أنوارا عقلية ونفسية وجسمية وغير ذلك .

وروى الامام أحمد أنه صلى الله عليه وسلم قال « كنت نورا بين يدى ربى قبل خلق آدم بأربعة عشرَ ألف عام » قال العلامة ابن حجر فى شرح المشكاة : ويُعلم من هذا عدم معارضة هذا الحديث لحديث أبى هريرة الذى رواه ابن حبان والحاكم والامام أحمد أنه قال « يا رسول الله أخبرنى عن أصل كل شيء فقال عليه الصلاة والسلام كل شيء خلق من الماء » فهذا يقتضى أن الماء أول مخلوق . قال تعالى (وكان عرشه على الماء) فحاصل الجواب أنها أولية اضافية لا حقيقيَة ، والاضافية لا تمنع تقدم شيء قبلها ، وانما تقتضى تأخر شيء بعدها . على أن آية (والله خلق كل دابة من ماء) وآية (وجعلنا من الماء كل شيء حى) يقتضيان حصر اصالته لبعض الموجودات لا لجميعها ، فالحقيقة المحمدية جوهر من الجواهر التى لا يعلمها الا خالقها ، وقد عبّر عنها صلى الله عليه وسلم بالنور كما عبّر الحق عز وجل من باب التقريب للعقول البشرية على قدر مداركها . اهـ منه .

وروى الترمذى فى صحيحه عن أبى هريرة رضى الله تعالى عنه قال : « قالوا يا رسول الله متى وجبت لك النبوّة قال وآدم بين الروح والجسد » .

وقد روى الحاكم فى صحيحه عن عمر رضى الله عنه رفعه « لما خلق الله العرش كتب عليه بالنور لا إله الا الله محمد رسول الله فلما خرج آدم من الجنة رأى على ساق العرش اسم محمد مقرونا باسم الله تعالى . فقال يارب بحرمة هذا الولد ارحم هذا الوالد . فنودى يا آدم لو استشفعت الينا بمحمد فى أهل السموات والأرض لشفعّناك » .

وروى أبو الحسن على بن محمد المعروف بابن المغازلى الواسطى الشافعى فى كتابه المناقب عن سلمان الفارسى رضى الله عنه قال « سمعت حبيبى محمدا صلى الله عليه وسلم يقول : كنت نورا بين يدى ربى عز وجل يسبح الله ذلك النور ويقدسه قبل أن يخلق الله آدم بأربعة عشر ألف عام فلما خلق آدم أودع ذلك النور فى صلبه » .

وفى كتاب جمع الفوائد عن جابر بن عبد الله رفعه الناس من أشجار شتى : —

وقد رواه البيهقى وأحمد والترمذى وعبد الرزاق بن عمر أنه رضى الله تعالى عنهما قال « سألت النبى صلى الله عليه وسلم عن أول شىء خلقه الله تعالى فقال : هو نور نبيك يا جابر . خلقه الله ثم خلق منه كل خير . وحين خلقه الله أقامه مقام القرب اثنى عشر ألف سنة . ثم جعله أربعة أقسام فخلق العرش من قسم ، والكرسى من قسم ، وحملة العرش من قسم ، وأقام القسم الرابع فى مقام الحب اثنى عشر ألف سنة ، ثم جعله أربعة أقسام فخلق القلم من قسم ، واللوح من قسم ، والجنة من قسم وأقام القسم الرابع فى مقام الخوف اثنى عشر ألف سنة . ثم جعله أربعة أقسام فخلق الملائكة من قسم ، والشمس من قسم ، والكواكب من قسم وأقام القسم الرابع فى مقام الرجاء اثنى عشر ألف سنة . ثم جعله أربعة

أقسام فخلق العقل من قسم ، والعلم والحلم من قسم ، والعصمة والتوفيق من قسم وأقام القسم الرابع فى مقام الحياء اثنى عشر ألف سنة ثم نظر اليه فترشح النور فقطرت منه مائة ألف قطرة وعشرون ألفا وأربعة آلاف قطرة فخلق الله من كل قطرة روح نبى أو رسول ثم تنفست أرواح الأنبياء فخلق الله من أنفاسهم نور أرواح الأولياء والسعداء والشهداء والمطيعين من المؤمنين الى يوم القيامة » .

فالعرش والكرسى من نورى والكروبيون والروحانيون من نورى والجنة وما فيها من النعيم من نورى والشمس والكواكب من نورى والعقل والعلم والتوفيق من نورى وأرواح الأنبياء والرسل من نورى والسعداء والصالحون نتائج نورى .

ثم خلق الله آدم من الأرض وركب فيه النور وهو الجزء الرابع ثم انتقل منه الى شيث وكان ينتقل من طاهر الى طيب الى أن وصل الى صلب عبد الله بن عبد المطلب ومنه الى وجه أمى آمنة ثم أخرجنى الى الدنيا فجعلنى سيد المرسلين وخاتم النبيين ورحمة للعالمين وقائد الغر المحجلين هكذا بدء خلق نبيك يا جابر » .

وفى جمع الفوائد أيضا من حديث ميسرة الفجر رضى الله عنه « أول ما خلق الله روحى وأول ما خلق الله نورى وأول ما خلق الله العقل وأول ما خلق الله القلم وأول ما خلق الله نور نبيك » .

وفى صحيح مسلم « أنه صلى الله عليه وسلم قال : أول ما خلق الله القلم » .

فقد عرفت أنه جاء فى صحيح البخارى أول ما خلق الله الماء . وفى

مسلم أول ما خلق الله القلم وعند الامام أحمد كنت نورا فهذه الأوليات اضافية بالنسبة للأولية الأولى كما ورد فى سور القرآن أول سورة نزلت الفاتحة . وأول سورة نزلت الضحى وأول سورة نزلت المدثر . وأول سورة نزلت اقرأ فهذه أوليات اضافية للأولية الأولى وهى اقرأ فلا يلتبس عليك ما هو وارد فى السنة من الأوليات ولك أن ترجع العقل الى الأولية التى أنت متمسك بها وتنظر الى مادتها من أى شىء الى أن تصل الى أول الأوائل فتعرف حقائق الموجودات فتكون هى المرادة بأول خلق الله .

وفى كتاب الاصابة فى تمييز الصحابة لابن حجر العسقلانى رحمه الله تعالى قال عن ميسرة الفجر رضى الله عنه قال « قلت يا رسول الله متى كنت نبيا قال وآدم بين الروح والجسد » .

لعله قد ظهر لك ما اشتهر على ألسنة الناس بقولهم فى الصلاة والسلام عليه « يا أول خلق الله ، ويا نور عرش الله ، ويا رحمة الله ، ويا نعمة الله ، ويا من لولاك ما أوجد الله ، ويا أكرم الخلق على الله وغير ذلك من الألفاظ التى تشعر بالثناء عليه صلى الله تعالى عليه وسلم من كل وصف وصفه الله تعالى به أو بينته السنة المطهرة . ولقد أحسن وأجاد وأفاد من قال :

لو أبصر الشيطان طلعة نوره
في وجه آدم كان أول من سجد
أو لو رأى النمروذ نور جماله
عبد الجليل مع الخليل وما جحد
لكن جمال الله جل فلا يرى
الا بتخصيص من الله الصمد

ومن أروع ما وقع لبعض الملهمين انه أراد تخميس الهمزية للعلامة البوصيرى رضى الله تعالى عنه فشرط على نفسه أن لا يخمسها الا فى الروضة الشريفة بين يدى صاحبها عليه أفضل الصلاة والسلام فجلس ثم قال :

بابن عمران شرفت سيناء

وبادريس والمسيح السماء

ولك العرش موطىء ووطاء

كيف ترقى رقيك الأنبياء

يا سماء ما طاولتها سماء

فسمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول له : كفى فسكت ولم يقل شيئا بعد ذلك امتثالا للأمر الكريم .

الفصل السادس

فى معرفة بدء حقائق الموجودات قبل خلق الأرضين والسموات

ظن الكثير من الناس أن الكائنات وجدت على ما هى عليه الآن من المشاهدة والعيان بدون حقيقة لها ، والحق خلاف ذلك لما فيه من نفى الأزل ، وهو عبارة عن الزمن الذى كان قبل اظهار المشاهدات ، وكل من جهل ذلك فليس على شيء .

لما فى ذلك من نفى القضاء والقدر الذى هو حقيقة من حقائق الايمان ، وقد جهل المنكر أن لكل حق حقيقة أزلية وبخاصة بنى آدم وجهل أيضا كل ما فى المقابلة والمماثلة ، كما جهل أن الله تعالى هو الخالق للمعانى والصور ، وكيف ذلك بعد قوله تعالى (الذى خلق الموت والحياة) وقوله

تعالى فى تنبيه عباده الى الحقائق الأزلية (فأما من أعطى واتقى وصدق بالحسنى فسنيسره لليسرى وأما من بخـل واستغنى وكذب بالحسنى فسنيسره للعسرى) وقد استشهد بها صلى الله تعالى عليه وسلم فى الحديث المروى عند البخارى عن على رضى الله تعالى عنه « بينما نحن جلوس فى جنازة فى بقيع الغرقد اذ أقبل علينا النبي صلى الله عليه وسلم فقمنا فقابلناه فجلس فجلسنا حوله ومعه مخصرة ينكس بها فجعل ينكث بها ثم قال : ما من نفس منفوسة الا قد كتب عملها شقية أو سعيدة فقال قائل : اذن ندع العمل ونتكل على الكتاب يا رسول الله ؟ فقال : أما من كان من أهل السعادة فسيصيره كتابه لعمل أهل السعادة ، وأما من كان من أهل الشقاوة فسيصيره كتابه لعمل أهل الشقاوة . فأما من أعطى واتقى وصدق بالحسنى فسنيسره لليسرى وأما من بخل واستغنى وكذب بالحسنى فسنيسره للعسرى » الحديث . وفى رواية « اعملوا فكل ميسر لما خلق له » وفى الحديث المشهور عند البخارى وغيره عن عمر رضى الله عنه وفيه قوله صلى الله تعالى عليه وسلم « وأن تؤمن بالقدر خيره وشره » وفى رواية « حلوه ومره » وفى رواية عند ذكره صلى الله تعالى عليه وسلم القضاء والقدر فقال قائل والدعاء يا رسول الله أى ما فائدته فقال « ذاك من القضاء والقدر » فمن جهل ذلك جهل ان الله تعالى أبان لعباده أنه خلق لهم الظاهر والباطن قال تعالى (وأسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة) وقال تعالى (ولا تقربوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن) وقال تعالى (قل انما حرم ربى الفواحش ما ظهر منها وما بطن) الآية وقد غرب عن هذا المفكر ان الله تعالى خلق السر والعلانية قال تعالى (يعلم السر وأخفى) وقال تعالى (يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور) وجهل أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال فى القرآن « لكل حرف منه ظهر

وبطن » وقال فى الرواية المشهورة التى ذكرناها « ان لكل حق حقيقة »
أى مامن موجود مشاهد معاين يحكم عليه بأنه محقق الوجود والعيان
الا له حقيقة . قال أهل الحق والتحقيق : حقائق الأشياء ثابتة والعلم
بها متحقق ، وذلك فى المشاهد المعاين فمن جهل حقيقتها فقد جهل اللفظ
والمعنى أى جهل الأوضاع المشاهدة التى لاتدرك الا بالبيان والتبيين
فى كل شىء .

لأن الله سبحانه وتعالى أبان لعباده فى كتابه العزيز على يد من
أسند اليه البيان والتبيين ، حيث خلق سبحانه وتعالى الانسان على العلم
والمعرفة فهو دائما نزاع الى حب الاستطلاع ، وخاصة فيما غاب عنه .
ولما كان ابن آدم هو المراد للحق سبحانه وتعالى من هذا الخلق ،
وما خلق هذا الوجود الا لأجله ، وعلم جل شأنه أنه يسأل عن كل شىء
من المبدأ للمعاد ، فأبان له كل ذلك على لسان حضرته صلى الله تعالى
عليه وسلم . ومعلوم أن معرفة ابن آدم تنتهى الى حد لها كما سئل
صلى الله تعالى عليه وسلم عن معنى قوله تعالى (له ما فى السموات وما فى
الأرض وما بينهما وما تحت الثرى) فأخذ يبين صلى الله تعالى عليه وسلم
الى أن قال : السائل فى خلال بيانه صلى الله عليه وسلم وما تحت الثرى
يا رسول الله ؟ أى ما وراء ذلك . فقال صلى الله تعالى عليه وسلم « الى
هنا ينتهى علم الخلائق » الحديث كما يقال فيما بعد العرش كذلك فعلم
الخلائق محدود فى كل شىء يحسبه دون علم الخالق جل وعلا ، وقد قلنا
فى غير مامرة أن حضرته صلى الله تعالى عليه وسلم أوسع خلق الله تعالى
علما . ومعلوم أن هذا الوجود حادث ، وكل حادث لابد له من أول ،
فابن آدم المخلوق على المعرفة والعلم ضرورة يسأل عن أول محدث لله
تعالى من هذا الوجود فأبانه له سبحانه وتعالى على لسان حضرته صلى الله

تعالى عليه وسلم بعد كتابه العزيز الذى جمع فيه بقدرته العالية سبحانه جميع مافى الكتب المقدسة السماوية ولذا سماه بالقرآن المجيد فأبان فيه أن بدأ الحوادث كانت بأفضل خلقه ومن شاء تبارك وتعالى تفضيلهم على جميع خلقه ، وكان ذلك بالمعنى وهى الحقيقة التى لايظهر وجودهم ولا يتم معناهم الا بها فى عالم الظهور قال تعالى (واذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى شهدنا) الآية فبهذا كان هو الثانى لمبدأ الظهور المتحقق من الحقيقة الأولى التى هى بدأ الظهور واظهار الموجودات لأجلها ، فباعتبار أفراده كان بهذا لكل فرد منهم حقيقة تحقق بها وجوده فى الظهور الامكانى . ولما كان لهذه الأفراد حقيقة مرجعها الى ما أبدعت منه وهى ما تسمى بحقيقة الحقائق ، والحق المخلوق به ، والعبد الأول الذى صحت اضافته اليه تعالى ، ومن بعد وجود حقائق الأفراد الانسانية التى هى أكرمها عليه تبارك وتعالى صار يتجلى عليها سبحانه وتعالى بقدرته وارادته كلما شاء ابداعه فى هذا الوجود قال تعالى (وما خلقنا السموات والأرض وما بينهما الا بالحق) فالباء فى قوله تعالى بالحق بمعنى من كما هو صريح القرآن وبيان السنة واللغة العربية التى نزل بها القرآن ، واجماع خيار الأمة على ذلك وقد بيناه فى مواضع كثيرة وان كان لفظ الحق جاء فى القرآن كثيرا ولكن له فى كل موضع معنى يليق بذكره فيه ، وخاصة بما قد سمى سبحانه وتعالى نفسه بالحق ، وسمى مجتباه صلى الله تعالى عليه وسلم بالحق قال تعالى (فلما جاءهم الحق من عندنا قالوا لولا أوتى مثل ما أوتى موسى) الآية وقال تعالى (والذين آمنوا وعملوا الصالحات وآمنوا بما نزل على محمد وهو الحق من ربهم) الآية ، وغير خاف أن الضمير يرجع لأقرب مذكور وناهيك بما قرره العلامة

الألوسي في تفسيره عند قوله تعالى (وبالحق أنزلناه وبالحق نزل) الآية أي ومع الحق نزل ، وعلى ما قرره العلامة الخطيب في تفسيره عند قوله تعالى (قل ياأيها الناس قد جاءكم الحق من ربكم) الآيات قال المراد حضرته صلى الله تعالى عليه وسلم .

ولا يخفى على كل مسلم مؤمن ذى عقل راجح وبصيرة مضيئة ، ان الله تعالى قد أبان لعباده في كتابه العزيز الذى أبان فيه جل وعلا لعباده أنه تبارك وتعالى قدر الأشياء أزلا قبل وجودها في الخارج ، وفي الأزمنة التي توجد فيها ، وبما يصدر منها وعنها وعليها ، قال تعالى (ما أصاب من مصيبة في الأرض ولا في أنفسكم الا في كتاب من قبل أن نبرأها ان ذلك على الله يسير لكى لا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم والله لا يحب كل مختال فخور) قال العماد بن كثير في تفسيره : يخبر تعالى عن قدره السابق في خلقه قبل أن يبرأ البرية فقال (ما أصاب من مصيبة في الأرض ولا في أنفسكم) أى في الآفاق وفي نفوسكم (الا في كتاب من قبل أن نبرأها) أى من قبل أن نخلق الخليقة ونبرأ النسمة ، وقال بعضهم : من قبل أن نبرأها عائد على النفوس وقيل عائد على المصيبة والأحسن عوده على الخليقة والبرية لدلالة الكلام عليها كما قال ابن جرير حدثنى يعقوب حدثنا ابن علية عن منصور بن عبد الرحمن قال : كنت جالسا مع الحسن فقال رجل سله عن قوله تعالى (ما أصاب من مصيبة في الأرض ولا في أنفسكم الا في كتاب من قبل أن نبرأها) فسألته عنها فقال سبحان الله ومن يشك في هذا ؟ كل مصيبة بين السماء والأرض في كتاب الله من قبل أن يبرأ النسمة . وقال قتادة : (ما أصاب من مصيبة في الأرض) قال هى السنون يعنى الجدب (ولا في أنفسكم) يقول الأوجاع والأمراض ، قال وبلغنا أنه ليس أحد يصيبه خدش عود

ولا نكبة قدم ولا خلجان عرق الا بذنب وما يعفو الله عنه أكثر . وهذه الآية الكريمة العظيمة من أدل دليل على القدرية نفاة العلم السابق — قبحهم الله — وقال الامام أحمد حدثنا أبو عبد الرحمن حدثنا حيوة وابن لهيعة قالا أخبرنا أبو هانىء الخولانى أنه سمع أبا عبد الرحمن البجلى يقول : سمعت عبد الله بن عمرو بن العاص يقول : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « قدر الله المقادير قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة » . ورواه مسلم من حديث عبد الله بن وهب وحيوة بن شريح ونافع بن زيد ثلاثتهم عن أبى هانىء به وزاد ابن وهب (وكان عرشه على الماء) ورواه الترمذى وقال حسن صحيح وقوله تعالى (ان ذلك على الله يسير) أى ان علمه تعالى الأشياء قبل كونها وكتابته لها طبق ما يوجد فى حينها سهل على الله عز وجل لأنه يعلم ما كان وما يكون ومالم يكن لو كان كيف يكون وقوله تعالى « لكى لا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم » أى أعلمناكم بتقدم علمنا وسبق كتابتنا للأشياء قبل كونها وتقديرنا الكائنات قبل وجودها ، لتعلموا ان ما أصابكم لم يكن ليخطئكم ، وما أخطأكم لم يكن ليصيبكم فلا تأسوا على ما فاتكم لأنه لو قدّر شىء لوقع فى الخارج (ولا تفرحوا بما آتاكم) أى جاءكم ، وتفسير آتاكم أى أعطاكم ، وكلاهما متلازم أى لا تفخروا على الناس بما أنعم الله به عليكم ، فان ذلك ليس بسعيكم ولا بكدكم ، وانما هو عن قدر الله ورزقه لكم فلا تتخذوا نعم الله أشرا وبطرا تفخرون بها على الناس ، ولهذا قال تعالى (والله لا يحب كل مختال فخور) أى مختال فى نفسه متكبر فخور أى على غيره . وقال عكرمة ليس أحد فى الخلق الا وهو يفرح ويحزن ولكن اجعلوا الفرح شكرا والحزن صبرا . اهـ من ابن كثير وكذا قوله تعالى (نحن

قدرنا) (نحن قسمنا) (وكان أمر الله قدرا مقدورا) (ذلك تقدير العزيز العليم) وهكذا من الآيات الكريمة التى أبان تبارك وتعالى فيها لعباده أنه قدّر الأشياء قبل وجودها على ما تقدم فى الحديث السابق وقد أبان سبحانه وتعالى أن هذا يسمى بالحقائق الأولية وعليه كان بيان سيد العالمين صلى الله تعالى عليه وسلم فيما رواه الامام أحمد فى مسنده والطبرانى فى الكبير عن أبى هريرة رضى الله تعالى عنه ان رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم قال « ان لكل شىء حقيقة وما بلغ عبد حقيقة الايمان حتى يعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه وما أخطأه لم يكن ليصيبه » وفى قوله صلى الله تعالى عليه وسلم لحارثة بن عبيد « ان لكل حق حقيقة وما حقيقة ايمانك ؟ » الحديث تقدم وسيأتى ، وفى حديث وفد الأزديين حدث علقمة بن يزيد الأزدى عن أبيه عن جده أنه قال : وفدت على رسول الله صلى الله عليه وسلم سابع سبعة من قومى فلما دخلنا عليه وتحدثنا معه أعجبه ما رأى من سمتنا وزيّنا ثم قال من أنتم ؟ قلنا مؤمنون فتبسم صلى الله عليه وسلم ثم قال « ان لكل قول حقيقة فما حقيقة ايمانكم ؟ قلنا خمس عشرة خصلة خمس أمرتنا رسلك أن نؤمن بها وخمس أمرتنا رسلك أن نعمل بها وخمس تخلقنا بها فى الجاهلية فنحن عليها الا أن تكره منها شيئا فنتركه قال : فما الخمس التى أمرتكم رسلى أن تؤمنوا بها ؟ قلنا أمرتنا رسلك أن نؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر قال فما الخمس التى أمرتكم رسلى أن تعملوا بها ؟ قلنا أمرتنا رسلك أن نشهد أن لا اله الا الله وأن محمدا رسول الله ونقيم الصلاة ونؤتى الزكاة ونصوم رمضان ونحج بيت الله الحرام ان استطعنا اليه سبيلا قال فما الخمس التى تخلقتم بها فى الجاهلية ؟ قلنا الشكر فى الرخاء والصبر عند البلاء والرضى بمر القضاء والصدق عند

اللقاء وترك الشماتة بالأعداء فقال حكماء علماء وكادوا من فقههم أن يكونوا أنبياء ثم قال وأنا أزيدكم خمسا لتكمل لكم عشرون خصلة اذا كنتم كما تقولون فلا تجمعوا ما لا تأكلون ، ولا تبنوا ما لا تسكنون ، ولا تنافسوا فى شىء أنتم عنه غدا زائلون واتقوا الله الذى اليه ترجعون وعليه تعرضون وارغبوا فيما أنتم عليه قادمون ومنه تخلدون » فقد أفادك هذا الحديث الشريف ان لكل شىء حقيقة حتى فى الأقوال والأفعال وهو ما ينسب الى الحق جل وعلا المسمى بالقضاء أزلا حتى اشتهر على ألسنة الناس قول بعضهم :

تعزّ فلا شىء على الأرض باقيا
ولا وزرٌ مما قضى الله واقيا

وعلى هذا تعرف أن الله تعالى بين لعباده أن جميع ما فى الوجود من ساكن ومتحرك أو زيادة ونقصان وعز وخسران وخير وشر الا واقع لا محالة على وفق القضاء والقدر ، وكل ذلك مثبت فى كتاب مبين حتى الأفعال من الأعمال والآجال الا كذلك قال تعالى (وما يعمر من مُعمَّر ولا ينقص من عمره الا فى كتاب) وقد أبان ذلك صلى الله تعالى عليه وسلم فى قوله الشريف « من عرف سر الله فى القدر هانت عليه المصائب » قال الامام الفخر وتحقيق الكلام فيه على أن مذهب أهل السنة أن وقوع كل ما وقع واجب ، وعدم كل مالم يقع واجب أيضا لأسباب أربعة . أحدها : أن الله تعالى علم وقوعه فلو لم يقع انقلب العلم جهلا . وثانيها : ان الله تعالى أراد وقوعه فلو لم يقع انقلبت تلك الارادة تمنيا . وثالثها : أنه تعلقت قدرة الله تعالى بايقاعه فلولم يقع لانقلبت تلك القدرة عجزا . ورابعها : ان الله تعالى حكم بوقوعه بكلامه الذى هو صدق فلو لم يقع

لانقلب ذلك الخبر الصدق كذبا وهو محال فاذن هذا الذى وقع واجب التحقيق ولولم يقع لتغيرت هذه الصفات الأربعة من كمالها الى النقص ومن قدمها الى الحدوث وهو باطل . ولما كان ذلك ممتنعا علمنا انه لا دافع لذلك الوقوع وحينئذ يزول الغم والحزن عند ظهور هذه الخواطر فتهون عليه المحن والمصائب . اهـ .

ولا تنسى قول الحق عز وجل (وذا النـــون اذ ذهب مغاضبا فظن أن لن نقدر عليه فنادى فى الظلمات ان لا اله الا أنت سبحانك انى كنت من الظالمين فاستجبنا له ونجيناه من الغم وكذلك ننجى المؤمنين) قال الامام القرطبى فى قوله تعالى (فظن أن لن نقدر عليه) روى عن سعيد ابن جبير حكاه عنه المهدوى ، والثعلب عن الحسن . وذكر الثعلبى وقال عطاء وسعيد بن جبير وكثير من العلماء : فظن أن لن نضيّق عليه . قال الحسن : هو من قوله تعالى (الله يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر) أى يضيق . وقوله : (ومن قدر عليه رزقه) . قلت : وهذا الأشبه بقول سعيد والحسن — وقدر وقدّر وقتر وقتّر بمعنى ، أى ضيق ، وهو قول ابن عباس فيما ذكره الماوردى والمهدوى وقيل : هو من القدر الذى هو القضاء والحكم ؛ أى فظن أن لن نقضى عليه بالعقوبة ؛ قاله قتادة ومجاهد والبراء . مأخوذ من القدر وهو الحكم دون القدرة والاستطاعة . قلت : وهذان التأويلان تأولهما العلماء فى قول الرجل الذى لم يعمل خيرا قط لأهله اذا مات فحرقوه « فوالله لئن قدر الله علىّ — الحديث » . فعلى هذا التأويل الأول يكون تقديره : والله لئن ضيق الله علىّ وبالغ فى محاسبتى وجزائى على ذنوبى ليكونن ذلك ، ثم أمر أن يحرق بافراط خوفه . وعلى التأويل الثانى : أى لئن كان سبق فى قدر الله وقضائه أن يعذب كل ذى جرم على جرمه ليعذبنى الله

على اجرام وذنوب عذابا لا يعذبه أحدا من العالمين غيرى . وحديثه خرجه الأئمة فى الموطأ وغيره . اهـ . وأخرج الديلمى عن سليم بن جابر الجهنى قال : قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم « سيفتح على أمتى باب من القدر فى آخر الزمان لا يسده شيء ، يكفيكم منه أن تلقوه لهذه الآية (ما أصاب من مصيبة) الآية . وأخرج الامام أحمد والحاكم وصححه عن أبى حسان أن رجلين دخلا على عائشة رضى الله تعالى عنها فقالا ان أبا هريرة يحدث ان نبى الله صلى الله تعالى عليه وسلم كان يقول « انما الطيرة فى المرأة والدابة والدار » فقالت والذى أنزل القرآن على أبى القاسم صلى الله تعالى عليه وسلم ما هكذا كان يقول ، ولكن كان رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم يقول « كان أهل الجاهلية يقولون انما الطيرة فى المرأة والدابة والدار ثم قرأت (ما أصاب من مصيبة) الآية .

وأيضا لا تنسى قوله تبارك وتعالى (لولا كتاب من الله سبق لمسكم فيما أخذتم عذاب عظيم) قال الامام الفخر فقوله (لولا كتاب من الله سبق) معناه لولا انه تعالى حكم فى الأزل بالعفو عن هذه الواقعة لمسكم عذاب عظيم وهذا هو المراد من قوله (كتب ربكم على نفسه الرحمة) ومن قوله « سبقت رحمتى غضبى » اهـ .

لعله قد اتضح لك واستنار من الآيات الكريمة والأحاديث الشريفة ان كل موجود لله تعالى فى الظهور له حقيقة أولية مما تراه من هذه الموجودات . وأهمها وأهم حقائقها بنى آدم ، وتعرف ان ما هو ظاهر فى الوجود متفاوت فى الرتبة والشرف والتكريم على مقتضى قضاء الله تعالى له أزلا فيكون به فى الظهور كذلك .

ومن البديهى عقلا ونقلا أنه لما كان صلى الله تعالى عليه وسلم فى الظهور بالبشرية مخلوقا له عز وجل ، وكانت له حقيقة كحقائق أفراد الموجودات على ما هو المتبادر الذى لا مرية فيه ، ولكن لما خصه تبارك وتعالى بمزايا لم يخصص بها بشر مثله ، ولم يرد فى جميع الكتب المقدسة السماوية التى جمعها القادر ببديع صنعه تبارك وتعالى فى القرآن المجيد الذى ما فرط فيه من شىء وفصل فيه كل شىء وبين فيه كل شىء أفضل منه حتى يقدم عليه فى الابداع الأول والصنع المبتكر الذى مرجع كل شىء اليه ويعول فى التحقيق والتحقق عليه ، ومع هذا فان تلك الحقائق وان كانت متفاوتة الرتب فى الابداع والوجود لابد لها من حقيقة كلية تكون أصلا لكل الحقائق حتى يصح نسبتها اليها ومرجعها عليها وضرورة أن يكون الحق فيها واحد يجمع جميع حقائق الموجودات ولا ضرورة للتعدد حيث كان المبدع قادرا مريدا وهذا يعلم من المشاهد المعاين ضرورة .

وكيف يجحد ذلك جاحد بعد المشاهدة بأن مبدع الكائنات أوجد فى المشاهد المعاين فى كل نوع منه فردا واحدا ، أبدع منه تبارك وتعالى آلاف الأفراد المشاهدة قال تعالى (أو لم يتفكروا فى أنفسهم ما خلق الله السموات والأرض وما بينهما الا بالحق وأجل مسمى) الآية . فكل من له مسكة من عقل يعرف ذلك ، وان الانسان أصله واحد ، وأبدع منه تبارك وتعالى ما ترى وتسمع عن الماضين والحاضرين ومن سيجىء مما لا يعلمه الا هو تبارك وتعالى قال جل وعلا (يا أيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالا كثيرا ونساء) الآية . مما لا يكاد يحصيه عد ولكن عند ربك تبارك وتعالى كل شىء عنده بمقدار ، قال تعالى (لقد أحصاهم وعدهم عدا

وكلهم آتيه يوم القيامة فردا) ومن الدواب والطيور والهوام والحشرات والأسماك كذلك قال تعالى (وما من دابة فى الأرض ولا طائر يطير بجناحيه الا أمم أمثالكم ما فرطنا فى الكتاب من شىء) الآية .

فمن عرف حقيقة نفسه ، وما هو عليه الآن ، وما هو مخلوق لأجله ، وما هو مخلوق له ، وعرف الظاهر والباطن والمعنى والصورة والنوع والذات كان عليه أن يعرف أن كل ما كان قبل الظهور فى الخارج هو عبارة عن المعنى والحقيقة ، وهذا هو أصل الخلاف .

اعلم أن أصل الخلاف بين المتحققين وأهل الزيغ هى هذه المسألة — لأن أهل الخلاف لا ينظرون الا الى ما ظهر لهم من الأمور بدون تعقل لباطنها والصور دون المعانى . والذات بدون النوع . كقولهم ان آدم أول خلق الله وغير ذلك لمخالفتهم لما أجمع عليه خيار الأمة ، وأما المتحققون فينظرون الى أصل تلك الصور والذوات وهى الحقائق التى نشأت عنها هذه الصور المتحققة وعلموا من قول الصادق المصدوق « ان لكل حق حقيقة » أن حقائق هذه الموجودات لابد لها من حقيقة كلية جامعة لكل تلك الحقائق — وبالأحرى لم يعرف فى الظاهر من الصور والذوات أفضل من حضرته فكانت حقيقته أفضل الحقائق فمنها قولهم — يا أول خلق الله — باعتباره الحقيقة كما بينا .

المسألة الأولى :

قول الناس فى سيد العالمين

صلى الله عليه وسلم

ذهب الناس الى مذاهب شتى فى شأن سيد العالمين لما أوجد الحق سبحانه وتعالى فيه من صفات الكمال التى غايرت صفات البشر العادية

وقد شاع ذكرها بين العباد فكانت من أسرار ربنا وهذا هو السبب فى انتشار الصيت وارتفاع الذكر فكانت من أجل الدواعى للناس فى الكلام فى حضرته صلى الله تعالى عليه وسلم فمن رآه وممن لم يره وكان ذلك من الله سبحانه وتعالى من أكبر الدواعى الى انتشار دعوته التى شاء تبارك وتعالى تعميمها فى جميع معمور الأرض كما ثبت فى السنة مجىء مختلفى الألسن من الأقطار ، وسؤالهم لحضرته صلى الله تعالى عليه وسلم وكان هذا هو الباعث للناس على الكلام فى حضرته صلى الله تعالى عليه وسلم .

فمنهم من فهم أنه بشر عادى بل هو فى نظر أعدائه أقل من العادى لما جنح اليه مما لم يجنح اليه غيره من معاصريه ولا غيرهم من قبل فكانوا ينسبون اليه ما ليس بالحسن من سفه وجنون وظلم وكذب وبهتان وسحر وغير ذلك من صفات النقص للبشر ، وهم الكفار ومن على شاكلتهم وحسبنا فيهم ما رد الله تبارك وتعالى به عليهم فى محكم كتابه العزيز بأقطع الردود وأوضحها حجة عليهم ، برده تبارك وتعالى عليهم حين وصفهم بفقدانهم لأفضل أنواع الكمال فى الانسان فى قوله عز وجل (تراهم ينظرون اليك وهم لا يبصرون) .

ومنهم من فهم أنه بشر عادى غير انه امتاز بالذكاء والنبوغ والتفوق فى جميع أضرب ذلك حتى حاز كل مالم يحزه غيره وبهذا ساد قومه والناس أجمعين ، وصار له القدح المعلى فى عصره ويضرب به المثل بين العرب والعجم وما وصل الى ذلك الا بما حاز من المميزات الشخصية ومن كان كذلك فتجرى عليه العوارض الشخصية البشرية من خطأ ونسيان وجد واجتهاد وجهل وغلبة وقهر وظلم واساءة وغير ذلك ، وهؤلاء المنافقون والخوارج ومن على شاكلتهم الذين نشأوا على

نشأتهم وشربوا من مشربهم واعتقدوا عقيدتهم ونسجوا على منوالهم وهم الذين تراهم الآن قد خرجوا عن اجماع المسلمين قديما وحديثا ولذا تجد أسلافهم يستدلون على ذلك بكلام رب العالمين وسنة سيد المرسلين يؤولون معناهما الى غير المعنى المراد منهما لأغراضهم الشخصية اما جهلا منهم بمعانى ذلك كله ، أو مكابرة ومعارضة للحق وأهله وهم أهل الاجماع ، ولذا تجد من يقول منهم الآن بقولة أسلافه الضالين من المنافقين والخوارج الى وقتنا هذا .

فأنت ترى طائفة منهم ينظرون الى ظاهر أفعاله صلى الله تعالى عليه وسلم من أنها لا تغاير أفعال البشر العاديين من أكل وشرب ونوم وتزوج نساء وما ينتج من ذلك من أولاد وتحمله عبء ذلك كله من المسئوليات الشديدة التى تتطلبها الحياة الدنيا من كل بشر عادى مستدلين على ذلك بقوله تعالى (قل انما أنا بشر مثلكم) مع حذف قوله تعالى (يوحى الىّ) ليضلل غيره بصدر الآية ظنا منه أن البشرية فى حضرته صلى الله تعالى عليه وسلم من كل الوجوه وضم اليها قوله تعالى (لا أملك لنفسى نفعا ولا ضرا الا ما شاء الله ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير وما مسنى السوء) الآية . وقوله تعالى (قل ما كنت بدعا من الرسل وما أدرى ما يفعل بى ولا بكم) الآية . وقوله تعالى (ما كان لنبى أن يكون له أسرى حتى يثخن فى الأرض تريدون عرض الدنيا والله يريد الآخرة والله عزيز حكيم لولا كتاب من الله سبق لمسكم فيما أخذتم عذاب عظيم فكلوا مما غنمتم حلالا طيبا واتقوا الله ان الله غفور رحيم) وقوله تعالى (عفا الله عنك لم أذنت لهم حتى يتبين لك الذين صدقوا وتعلم الكاذبين) وقوله تعالى (فان كنت فى شك مما أنزلنا اليك) الآيات وقوله تعالى (لقد كدت تركن اليهم شيئا قليلا) الآيات .

وضم الى الآيات قوله الشريف صلى الله تعالى عليه وسلم « يا معشر الناس انما أنا بشر مثلكم وانه ليأتينى الخصمان وربما أحدهما كان ألحق من الآخر فأقضى له » الحديث . وقوله صلى الله تعالى عليه وسلم « أما والله انى لأخشاكم لله وأتقاكم له ولكنى أصوم وأفطر وأصلى وأرقد وأتزوج النساء فمن رغب عن سنتى فليس منى » الحديث وحديث تأبير النخل وفيه قوله صلى الله تعالى عليه وسلم « أنتم أعلم بأمور دنياكم » وحديث العرانيين الذين أرسلهم صلى الله تعالى عليه وسلم « مع رعاة ابله وقتلوا الراعى وقطعوا أيديه وأرجله » الحديث .

فلهذه الآيات والأحاديث ظنوا أن بشريته صلى الله تعالى عليه وسلم كبشرية كل أحد من أفراد النـاس حتى أجازوا عـلى حضرته الخطأ والصواب فى الاجتهاد من تلقاء نفسه ، وأنه صلى الله تعالى عليه وسلم كان يُغلب أحيانا فى الحروب ، وينام حتى تطلع الشمس ، ويغضب مع نسائه ، ويسهو فى صلاته وغير ذلك مما يحاولون فيه الحط من قدره الشريف لمستوى ما هم فيه ليبنوا على ذلك أمورا ضلوا بها ويضللون غيرهم ممن هو على شاكلتهم ويضمون اليها قوله صلى الله تعالى عليه وسلم « لا تطرونى كما أطرت اليهود والنصارى أنبياءهم » الحديث ومن هذا الحديث يحكمون على كل مادح لحضرته بالشرك وما أصل ذلك الا من أسلافهم السابقين الذين كان هذا منهم حسدا لحضرته صلى الله تعالى عليه وسلم قال تعالى (وان يكادوا الذين كفروا ليزلقونك بأبصارهم لما سمعوا الذكر ويقولون انه لمجنون) الآية . وقوله تعالى (أم يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله) الآية . وما حال حاضرهم الا كحال سابقهم حذوك النعل بالنعل ، فالحاضرون الآن يقولون بذلك وقد جهلوا فى ذلك كله وعموا وصموا عن معانى الآيات وما فى كل آية مما استشهدوا

به الا معنى يغاير استشهادهم وما بين معناها وما يريدون الا منافرة تامة ، اذ كل آية لها معنى خاص يلائم ما سبقت لأجله من النظم الكريم ، ولما يبنى عليها جميع ما يأتى على بنى البشر ما بقيت الدنيا حتى يتحقق قوله تعالى (لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة) وقوله تعالى (وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا) الآية . على أن الله تعالى قد خص تلك البشرية التى تمتاز حتى عن جميع بشرية المفضلين من الأنبياء والمرسلين بهذه المزايا ، فيجب أن يكون معنى الآيات ملائما لطبيعة البشرية التى شاء تبارك وتعالى تمييزها بمميزات لم يمنحها غيره من اخوانه الأنبياء والمرسلين ، وها هو سيدنا عيسى عليه السلام الذى كان تكوينه عن ملك وبشر لم يلبس الوحى جسده الشريف بل كان يأتيه الملك بصورة يعرفها فيكلمه كبقية جميع الأنبياء والمرسلين الذين لم يلبس الوحى جسد واحد منهم ويمتزج به الا حضرته صلى الله تعالى عليه وسلم ، ان لم يكن فى مميزات بشرية حضرته صلى الله تعالى عليه وسلم الا هذه لكفت .

وأما ما كان من كل الآى والأحاديث التى استبدلوا بها فهى تحقيق لقوله تعالى (لقد جاءكم رسول من أنفسكم) الآية . ليستأنس بحضرته ويؤخذ منه وعنه حتى لا يكون لبشر على الله حجة فى الاعراض عن أقواله وأفعاله وتقريراته حتى يتحقق قوله تعالى (لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة) وكيف ينسب من عنده أدنى ذوق سليم الى حضرته شيئا فى البيان الشريف من الأقوال والأفعال والتقريرات التى هى جماع الدين الاسلامى أجمع أنه من تلقاء نفسه مع قوله تعالى (وما ينطق عن الهوى) وقوله تعالى (وما رميت اذ رميت ولكن الله رمى) وقوله تعالى (فاصبر فانك بأعيننا) وفى قوله الشريف « يا معشر

الناس لم يخف علىّ مقامكم فانى أراكم من الخلف كما أراكم من الأمام » الحديث . وفى قوله الشريف « لست كأحدكم انما أبيت عند ربى يطعمنى ويسقينى » الحديث . وفى قوله الشريف « لم أنس ولكن أنسى لأسن » الحديث . وقول عائشة رضى الله عنها لحضرته صلى الله تعالى عليه وسلم « ما أرى ربك الا يسارع فى هواك » فهذه الأحاديث التى تنطبق على قوله تعالى (واصبر فانك بأعيننا) الآية . وقوله تعالى (ولقد نعلم أنك يضيق صدرك بما يقولون) وقوله تعالى (ولقد نعلم أنه ليحزنك الذى يقولون) وقوله تعالى (وتوكل على العزيز الرحيم الذى يراك حين تقوم وتقلبك فى الساجدين) وقوله تعالى (وما ينطق عن الهوى) وقوله تعالى (وما رميت اذ رميت ولكن الله رمى) .

فكيف بهؤلاء الذين يدعون العلم والمعرفة والايمان والاسلام ويستشهدون بآيات وأحاديث لا يعقلون لها معنى دون أن يفطنوا الى هذه الآيات التى ظواهرها معارضة ما استشهدوا به وليس فى القرآن الكريم ولا السنة المطهرة معارضة البتة ، اللهم الا أن يكون فى نظر هؤلاء الخارجين عن اجماع المسلمين ، والا فكيف يتفق هذا الذى قرروه وألفوا منه كتبا من أن حضرته صلى الله تعالى عليه وسلم يخطىء من نفسه ويصيب ويجهل الكثير من الأمور العادية مع الآيات التى قدمنا ، فهم بانحرافهم عن الجادة والطريق المستقيم وبخروجهم على اجماع المسلمين قد ضلوا ولن يهتدوا اذا أبدا .

فتارة تراهم يتلمسون كلاما من كلام الحرورية أو القدرية الذين يقولون ان العبد يفعل بنفسه بقوة من الله مودعة فيه ، وتارة

يأخذون بكلام المعتزلة الذين يقولون ان العبد يخلق أفعال نفسه الاختيارية وقد جهلوا وضلوا وأضلوا أتباعهم ولا شك أن الحركة والسكون بيده تبارك وتعالى فى جميع أفراد موجوداته جل وعلا ، فما بالك بالمقربين من الأنبياء والمرسلين ، وكيف الحال بمن هو أفضلهم وأكرمهم على الله تبارك وتعالى . فهل يفعل شيئا من تلقاء نفسه ؟ .

فهؤلاء يعلمون ظاهرا من الحياة الدنيا فيما أبانوه عن عقائدهم فى مؤلفاتهم فى نسبتهم الأفعال للعباد حقيقة ومجازا ، وقد جهلوا وعموا وصموا عن كل ما أبانه تبارك وتعالى لعباده فى كتابه العزيز من تكوينه الموجودات وخاصة ابن آدم ، وناهيك بالآية الفذة الجامعة فى قوله تبارك وتعالى (والله خلقكم وما تعملون) التى مفادها أن عمل العبد داخل فى تكوينه ، ولما كان كذلك كان مجبولا على ما خلق لأجله فلا يحيد عنه ولا يقصر فيه فالجاهل يظن أن هذا بجده واجتهاده وقد غفل عن قوله تعالى (فسبحان الذى بيده ملكوت كل شىء) وقوله تعالى (ألا له الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين) وقوله تعالى (ألا انه بكل شىء محيط) ومن الأشياء الذرات ما دق منها وصغر وقد عمى ولم يهتد لبيان سيد المرسلين حيث قال « اعملوا فكل ميسر لما خلق له » الحديث . فهؤلاء وأمثالهم ينظرون لما ظهر من الأمور فينسبون أفعالها للعباد حقيقة ، وأما أهل التحقيق والحق فينظرون للفاعل الحقيقى والموفق الأصلى فيقولون ماشاء الله قدر وأراد امتثالا لقوله تعالى (ولو شاء ربك ما فعلوه فذرهم وما يفترون) أو هم ينكرون القضاء والقدر فلا يؤمنون به كالقدرية لأنهم لو عرفوه لقالوا :

وكل شيء بالقضـاء والقـدر وكل مقـدور فما عنـه مفر

تحقيقا لقوله تعالى (وكان أمر الله قدرا مقدورا) ومصداق قوله صلى الله تعالى عليه وسلم « وأن تؤمن بالقدر خيره وشره » وما صدر من الحق سبحانه وتعالى فى جانب حضرته صلى الله تعالى عليه وسلم فما هو الا أحد أمرين . أولهما : بيان التشريع منه سبحانه وتعالى لعباده على يد من أسند اليه البيان والتبيين صلى الله تعالى عليه وسلم ، وثانيهما : خطابه سبحانه وتعالى الموجه لجميع عباده جل وعلا فى مواجهة حضرته صلى الله تعالى عليه وسلم ولا يخفى على ذوى البصائر النيرة أن الكثير من الآيات التى استشهدوا بها انما هى لردع المنكرين الذين كانوا يظنون أن القرآن هو من عندياته صلى الله تعالى عليه وسلم فبكتهم سبحانه وتعالى وأخزاهم بقوله جل وعلا (ولو تقول علينا بعض الأقاويل لأخذنا منه باليمين ثم لقطعنا منه الوتين فما منكم من أحد عنه حاجزين) الآيات لأنه لو كان من عنده أو كان له فى شأنه دخل ما انبغى أن يأتى بما يفهم منه الأغبياء أنه ذم فى نفسه ، ومثل هذا كثير فى الكلام العزيز والتنزيل الحكيم كقوله تعالى (فان كنت فى شك مما أنزلنا اليك) أو قوله تعالى (فلا تكونن من الممترين) أو قوله تعالى (فتكون من الخاسرين) وقوله تعالى (ولا تكونن من المشركين) وقوله تعالى (انك اذا من الظالمين) وقوله تعالى (لقد كدت تركن اليهم شيئا قليلا) وقوله تعالى (وان كان كبر عليك اعراضهم) . هذا وان كان بعض الآى يعود على بنى البشر عامة فمن يكون منهم ذلك فهو من قبيل التحذير والنهى والردع والزجر لهم ولأمثالهم لأن شأنهم كذلك ، وان حضرته صلى الله تعالى عليه وسلم جعله تبارك وتعالى على أكمل الأوصاف من كل الوجوه بقوله تعالى (وانك لعلى خلق عظيم) ومن كان كذلك فمحال أن يأتى بالنقائص

أو أن يوصف بشيء مما يوهم النقص ، اذن فالمراد بالآيات أمته عامة وخاصة كما فى قوله تعالى (ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر) فكيف مع هذا المدح الجليل يأتى بشيء من الذنوب ؟ اذن فالحق مع من يقول ان الذنوب ذنوب أمته لأنه صلى الله تعالى عليه وسلم يحملها أكثر مما يحمل لنفسه فالله تعالى طمأن خاطره بذلك لأنه صلى الله تعالى عليه وسلم كما وصفه ربه جل وعلا فى قوله تعالى (بالمؤمنين رءوف رحيم) وقوله تعالى (النبى أولى بالمؤمنين من أنفسهم) والا لزمنا ان الله تعالى أيضا لا يعلم أفعال عباده الا بعد وقوعها منهم كالقدرية المستدلين بقوله تعالى (فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين) فينسبون الجهل لله تعالى عن ذلك علوا كبيرا . والمعنى ليبين لكم حال الذين صدقوا ما عاهدوا الله عليه وهم المهتدون وليبين لكم حال الضالين الكاذبين الذين نقضوا ما عاهدوا الله عليه .

المسألة الثانية :

الخلاصة

غير خاف على ذوى البصائر النيرة أن الله تعالى جعل كل خارج عن اجماع المسلمين أعمى البصيرة فى هذه الدنيا كما سماهم تعالى بذلك (ومن كان فى هذه أعمى فهو فى الآخرة أعمى وأضل سبيلا) ومن كان هذا شأنه فلن يهتدى للصواب أبدا فى كل شيء من الأقوال والأفعال والمعتقدات ويا ليته يدرك ذلك ، بل يعتقد أنه على الحق بهذه المخالفة ولم يفطن أنه ممن قال تعالى فيهم (قل هل ننبئكم بالأخسرين أعمالا الذين ضل سعيهم فى الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا) .

ومن أكبر ما تعـرف به حالهم أنهم يتبعون كل مخالف لاجماع المسلمين وخاصة قولهم فى سيد العالمين انه بشر مثلك مثله من كل الوجوه آخذين ذلك جهلا منهم وتضليلا لغيرهم وتمويها على حسب أهوائهم من قول الله تعالى (قل انما أنا بشر مثلكم) وغفلوا عما بعدها من قوله تعالى (يوحى الى) فهل هذا الغافل الضال يوحى اليه حتى تتم له هذه المماثلة ؟ ويستدلون أيضا بقوله تعالى (قل ما كنت بدعا من الرسـل وما أدرى ما يفعل بى ولا بكم) فهم كاليهود والمنافقين الذين فرحوا بهذه الآية للحط من قدره الشريف صلى الله تعالى عليه وسلم وقد أرغم الله تعالى أنفهم بأن أنزل قوله الكريم (ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر) فأبان تعالى ما أبهم فى تلك الآية مما يفعله تعالى بحبيبه صلى الله تعالى عليه وسلم ، ويستدلون أيضا بقوله تعالى (قل لا أملك لنفسى نفعا ولا ضرا الا ما شاء الله) أى غير ما أراده الله تعالى وقدره ، وهم يجعلونها عامة بقصد الحط والتوهين من قدره الشريف ، كما يقولون فى استدلالاتهم أيضا بباقى الآية من قوله تعالى (ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير وما مسنى السوء) فالغيب الذى نفى علمه عن نفسه صلى الله تعالى عليه وسلم هو الغيب المطلق لأن ذلك مختص به تعالى وهذا لا ينافى أن الله تعالى أطلعه على علوم الأولين والآخرين كما هو صريح القرآن والسنة ، وقد قال تعالى (عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحدا الا من ارتضى من رسول) وان لم يكن حضرته صلى الله تعالى عليه وسلم كما بينا ليكون مصداقا لقوله تعالى (لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة) ولقوله تعالى (وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا) وفى الحديث الشريف أنه صلى الله تعالى عليه

وسلم قال « لم أنس ولكن أنسى لأَنس » فان لم يكن كذلك فكيف يؤخذ عنه التشريع فى جميع الأحكام التى أسند سبحانه وتعالى الى حضرته فيها البيان والتبيين ؟ .

فهم لجهلهم بكونه صلى الله تعالى عليه وسلم سيدا للعالمين كأسلافهم السابقين حسدا منهم يريدون الحط من قدره الشريف الذى لم يجعل الله عز وجل لأحد من جميع الأنبياء والمرسلين ميزة كحضرته صلى الله تعالى عليه وسلم .

وأما أهل الحق والتحقيق الذين هم على ما أجمع عليه خيار الأمة الاسلامية وهم علماؤها فقد قارنوا كل الآيات التى سيقت فى القرآن الكريم والأحاديث القدسية والنبوية الناطقة بما اشتمل عليه تكوينه الشريف حسا ومعنى فلم يكن بينها تفاوت ولا تعارض بل كلها يقوى بعضها بعضا فى امتياز معناه وصورته صلى الله تعالى عليه وسلم حتى استدلوا منها على مميزات حضرته فى الصورة البشرية وابداع الحق جل وعلا فيها بما لم يبدعه فى صورة قبل ولا بعد مثله حتى فى تركيب الأعضاء وما يبدو من الصورة لكل راء كالوجه وما اشتمل عليه من كل المحاسن المغايرة وخاصة العينين على ما بينا فى مميزاته الشريفة وكالكفين والقدمين والصدر والبطن والمشية ولقد أحسن من قال :

خلقت مبرءا من كل عيب ... كأنك قد خلقت كما تشاء

ومن ابداع الحق جل وعلا فى صورته الشريفة أن جعلها سبحانه وتعالى ظاهرة للبشر بشرية حتى يؤخذ منه وعنه ويقتدى بحضرته فى جميع الأقوال والأفعال والتقريرات ، وأن جعلها صالحة لمقابلة الحق جل وعلا فى المشاهدة والمراقبة مع الجمع بين الحالتين بما ظهر ذلك من

بيان السنة وتلقى حضرته للوحى واعداد الحق جل وعلا له بما فيه صلاحية قبول ومشاهدة عالم الملك والملكوت ليكون مصداقا لقوله تعالى (ما زاغ البصر وما طغى لقد رآى من آيات ربه الكبرى) وهكذا مما ذكر الحق عز وجل وبين تبارك وتعالى على لسانه الشريف الذى لم ينطقه عن الهوى .

وعن هذا كله قد غفل الغافلون ولم يهتد اليه المعرضون وضل عنه الضالون حتى عموا عن أن هــذه الصورة البشرية المقدسة قد أظهر الله تعالى لها معانى جمة تغاير البشر فى كثير من الوجوه بما صدر منها وعنها وأهمها مجىء الملك وتداخله فى جسده الشريف حتى سئل عن كيفية ذلك بعد التعجب من تداخل الجسم اللطيف وهو الملك فى الجسم الكثيف وهو البشر فيما يرويه البخارى عن الحرث بن هشام بقوله « كيف يأتيك الوحى يا رسول الله ؟ فقال : أحيانا يتمثل لى الملك رجلا فيكلمنى وأكلمه ، وأحيانا يأتينى مثل صلصلة الجرس وهو أشده علىّ فيبصم عنى وقد وعيت عنه ما قال » وهذه من أخص الخصائص لبشرية حضرته صلى الله تعالى عليه وسلم وهو أمر مشاهد لا ينكره الا كل مكابر ولا يجحده الا كل منافق حسود .

وقد انبرى الكثير من أفاضل علماء الأمة وخصصوا لذلك كتبا فى مزايا حضرته صلى الله تعالى عليه وسلم . وما من واحد منهم الا قد قام بدوره فى هذا المضمار الشريف ، فمنهم من تخصص وجمع جميع ما نزل بشأنه الشريف صلى الله تعالى عليه وسلم فى القرآن المجيد وسماه بالمدحة الكبرى ، ومنهم من تخصص وجمع كل ما ورد فى السنة المطهرة من خصائص ومميزات حضرته صلى الله تعالى عليه وسلم ، ومنهم من جمع

وأفاد وسماه بالشفا بالتعريف بحقوق المصطفى ، وناهيك بما جمعه من كل ما ذكرنا ومالم نذكر ممن قاموا بذلك واستوعب فيه الكثير ممن خصهم الله تعالى بذلك وأدرجه فى كتاب وسماه بجواهر البحار ، وها نحن أولاء بتوفيقه تبارك وتعالى تجمع شيئا من ذلك مما اطلعنا عليه ومما أفاضه علينا الكريم الفياض .

فمن أجل خصائصه الشريفة ما قص الله تبارك وتعالى علينا فى كتابه العزيز أن جعل نساءه لا كنساء العالمين فى قوله جل وعز (يا نساء النبى لستن كأحد من النساء) وفى قوله تعالى (ألم نشرح لك صدرك) ، ومن خصائصه الشريفة أن بيده الشريفة قد جاء فى السنة أنها كانت دائما تنطف طيبا حتى أن الصحابة كان اذا مر عليهم الصبى يشمون منه رائحة الطيب فيعرفون أن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم مسح على رأسه فيحققون فيجدون الأمر كذلك . وقد ورد أن من خصائصه أن مس بيده الشريفة السطيحة فقامت كأن لم يكن بها مرض ، ومن خصائصه الشريفة نبع المياه من بين أصابعه الشريفة ، ومن خصائصه : أن ريقه كان ترياقا لكل شيء منها ما تفل به على رجل الصديق فى الغار فبرأت من لدغ الثعبان ، ومنها أن تفل فى بئر ملحة الماء فاحلوّ ماؤها ، ومنها أن عين قتادة قلعت فى غزوة أحد ونزلت على خده فبصق فيها ووضعها فكانت أحسن مما كانت ، ومنها ما تفل به فى عينى سيدنا على بن أبى طالب رضى الله تعالى عنه من رمد بعينيه فى غزوة خيبر فبرئتا حتى قال سيدى عبد القادر الجيلانى فى جمع ذلك :

مس السطيحة قامت ثم تفلته قد صح أن بها ملح المياه حلى
نعم وأشفى بها الصديق من وجع كذا قتادة ردت عينه كعلى

ومن أهم خصائصه صلى الله تعالى عليه وسلم ما قص علينا جل وعلا فى محكم التنزيل أنه سبحانه أسند الرد لجميع الأنبياء والمرسلين

على من حاجوهم بأنفسهم ، وأما حضرته فقد تعهد سبحانه وتعالى بالرد عن حضرته بقوله تعالى (قل) (قل) (قل) حبا فيه وغيرة له وشفقة عليه ليكون من مصداق قوله تعالى (فانك بأعيننا) .

الفصل السابع

فى معرفة كيف كان صلى الله تعالى عليه وسلم أول خلق الله

مع كونه آخر رسل الله

تساءل الكثير من الناس عن معنى هذه الحقيقة ، وقالوا كيف يكون أول خلق الله وهو ابن عبد الله وخاتم رسل الله ؟

نقول : قد قدمنا أن لكل حق حقيقة ، ووجود كل كائن على الغبراء له حقيقة ضرورة أن كل حقيقة هى المصدر الأول للارادة الربانية وابرازا للأفعال الالهية وهى التى قد ظهرت بها هذه الصورة ، لأن لكل حق حقيقة ، واذا كان كل فرد من أفراد المخلوقات له حقيقة أفلا يكون لهذا الوجود كله حقيقة واحدة ؟ . اذن : فما هى حقيقة الحقائق ؟ : نقول لا ريب أن جميع بنى آدم وهم الذين خلقهم الله تعالى عقلاء على العلم والمعرفة هم كالفروع لأصل الشجرة ، وأصلها بالنسبة لنا آدم عليه السلام ، وأصل آدم من الطين ومركب وما أصل الأشياء التى تركب منها آدم غير التراب والماء والهواء والنار ؟ وما حقيقة تلك الأصول الأربع غير النار وهى الحرارة ينبعث عنها الدخان ثم الهواء ثم الماء . وما أصل النار غير النور الذى لا مجال للعقل فى ادراك كنهه وآدم بعد تركيب جسمه غير انسان حيث هو فى افتقار الى الروح ، وقد سبق النور مصاحبا للروح تكوين آدم المادى فى الموجود ، والأرواح التى

أخذ عليها العهد من ظهر آدم أين كانت ؟ وما أصل تكوينها قبل وجود المواد التى خلقت فيها ومنها العوالم قبل وجود آدم عليه السلام ؟ لا شك أن أصل الوجود حقيقة كلية أجملت فيها جميع الحقائق ولا يعقل التفصيل الا من الاجمال . وقد أجمع العقلاء قاطبة على أن أصل جميع الكائنات حقيقة كلية ، وهى حقيقته صلى الله عليه وسلم ، لما جاء به القرآن وبيان السنة ، وأما كونه صلى الله تعالى عليه وسلم آخر الأنبياء والمرسلين . فنقول : انه صلى الله تعالى عليه وسلم مرسل من بعث آدم عليه السلام الى عيسى عليه السلام كما نطق به القرآن الكريم قال تعالى (واذ أخذ الله ميثاق النبيين لما آتيتكم من كتاب وحكمة ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم لتؤمنن به ولتنصرنه قال أأقررتم وأخذتم على ذلكم اصرى قالوا أقررنا قال فاشهدوا وأنا معكم من الشاهدين) فما من نبى ولا رسول الا وأخبر قومه به صلى الله عليه وسلم ، فهو مرسل بمعناه من أول البشرية الى آخر البشرية وبصورته الشريفة آخر الأنبياء والمرسلين لمزيد شرفه ليكون خاتم النبيين والرسل المفضلين ولتكون شريعته آخر الشرائع فلا تنسخ بغيرها — وليزداد ترقيه صلى الله تعالى عليه وسلم فى الكمالات من ابتداء خلقه الى ما لا نهاية له — وليكون صلى الله عليه وسلم كفصل القضاء فان فى بعثته اشارة الى تمام الأمر وأن حقيقته وأصل تكوينه ظهر بالنور الذى كان يتلألأ فى الحياة والوجوه كما ثبت فى صحيح السنة أن الأنبياء والمرسلين تواصوا بالمحافظة عليه بألا يوضع الا فى كرائم الأمهات نبيا بعد نبى ووصيا بعد وصىَ من لدن آدم عليه السلام الى ابراهيم الخليل عليه السلام اقرأ قوله تعالى (وتقلبك فى الساجدين) أى أنساب الطيبين الطاهرين وبهذا حفظ الاله نسبه الشريف الطاهر لتلك الحقيقة الظاهرة الى آخر مصدر لظهوره الشريف صلى الله

تعالى عليه وسلم . مصداق قوله « ما ولدنى أبواى الا من نكاح الاسلام ، وما أصابنى من سفاح الجاهلية شىء » . وقوله : « ان الله اصطفى كنانة من ولد اسماعيل ، واصطفى من كنانة قريش ، واصطفى من قريش بنى هاشم ، واصطفانى من بنى هاشم فأنا خيار من خيار من خيار — ولقد أحسن القائل : —

حفظ الاله كرامة لمحمد   آباءه الأمجاد صونا لاسمه

فهو صلى الله تعالى عليه وسلم مراد الحق عز وجل من هذا الوجود ، فكان محل الرعاية الربانية ، والكفالة الصمدانية ، فهو الرحمة العظمى ، والنعمة الكبرى ، لجميع العالمين وكفى قوله تعالى (وما أرسلناك الا رحمة للعالمين) .

ولنا أن نقول : خلق الله تعالى الأشياء على المقابلة والمماثلة ، مجملة ومفصلة حسية ومعنوية ، مادية وروحية .

ولا يخفى على كل ذى قلب سليم ، وعقل منير أن الله تعالى جعل يوم الدنيا المعروف الذى أوله طلوع الشمس وآخره غروبها ، كالآدمى فى تطوره ووجوده — فانظر يا أخى الى وقت طلوع الشمس صغيرة حمراء ضئيل شعاعها ، فلا تزال تنمو وتزهو الى وقت الضحى ، أى الى ربع السماء تصير بيضاء نضرة . فمثلها كالطفل الى الخامسة عشر من عمره ينضر ويزهو وتحصل به الفائدة الدينية والدنيوية ، فيعقل ما خلق لأجله ، فيقوم به كالشمس تحصل فائدتها لكل ما خلقت لأجله من جماد ونبات وحيوان ، وغيرهم الى مستوى الظهيرة ، أى الى أن تصير للرائين أنها فى كبد السماء فتبقى برهة بالغة النهاية فى القوة من كل الوجوه ، والى هذا يشير الشاعر بقوله : —

منع البقاء تقلب الشمس وطلوعها من حيث لا تمسى
وطلوعها حمـراء صافية وغروبها صفراء كالورس
واليـوم أعلم ما يجىء به ومضى بفصل قضائه أمس

وهكذا الآدمى يقوى ويتزايد فى النمو الى سن الثلاثين الى الأربعين فيكون قد بلغ النهاية فى استكمال جميع قواه الجسمانية ، وخاصـة العقلية . ومن هنا تعرف حكمة ارسال الله تعالى الرسـل على رأس الأربعين .

ولا يعكر عليك أن سيدنا عيسى عليه السلام أوتى الرسالة قبل ذلك ! وكذا سيدنا يحيى عليه السلام (وآتيناه الحكم صبيا) فهذا من قبيل صنع الحكيم العليم ، الذى يغاير فيه سنن التكوين ، كما فى ولادة سيدنا عيسى عليه السلام المخلوق عن ملك وبشر وما أحسن من قال : —

عن ماء مريم أم عن نفخ جبرين سوّاه كالبشر المخلوق من طين

وكذا أبونا آدم عليه السلام وأمنا حواء . ومتى وصل الشخص الى هذه السن ، بل الى الخمسين فلا يكاد يظهر عليه شىء من العوارض المغيّرة الى الستين ، فتبدو عليه تلك العوارض من يومئذ ، وهكذا حتى تلوح عليه بوادر الشيخوخة ، مثل الشمس التى لا يظهر عليها التغير الا وقت العصر ، اذ لا يبقى من السماء الا الربع ، وهو وقت العصر فيكاد يلوح ويبدو عليها التغيّر الى ابتداء الاضمحلال قليلا قليلا الى أن يظهر عليها بوادر الاستعداد الى الغروب ، كذلك الآدمى بعد ظهور علامات الهرم عليه فليس وراءه الا الرواح للآخرة وليس هذا القياس فى بنى آدم فحسب ، بل فى جميع المولدات من جماد ونبات وحيوان .

فاذا عرفت أن اليوم مثله كمثل الانسان فتدبر معنى قوله تعـالى

(وفى أنفسكم أفلا تبصرون) والى هذا يشير الشاعر بقوله :

أشاب الصغير وأفنى الكبير ... كرّ الغداة ومر العشى

اذا ليله هرّمت يومها ... أتى بعد ذلك يوم فتى

فليس المعنى مقصورا على حالة واحدة بل هو عام فى كل شيء وهذا هو المعتبر فى نظر العقلاء . فاذا عرفت هذا فقد بان لك أن الدنيا كذلك من مبدئها الى نهايتها كيوم . تأمل بعين البصيرة وبنور المعرفة تجد وقت أن وجدت الدنيا لم يظهر فيها من الخلق أهل الخطاب والتكليف الا الجان وهم ابليس اللعين وذريته ، ثم من بعدهم آدم عليه السلام ثم مستلزماته من جماد وحيوان ونبات . وهكذا لا زال الخلق فيها ينمو ويزيد ، ويقوى الى مستوى هو أزهى عصور الدنيا بأجمعها الذى قد بلغ فيه كل شيء منتهاه ، من كافة أنواع الموجودات الدنيوية حتى العقائد الى أن أتى زمن كان هو أعلا أزمانها . وهذا يظهر لك من المشاهدات من الدلائل التى نصيبها الحق فى موجوداته ، من جماد ونبات وحيوان . اذ جعل سبحانه وتعالى فى كل شيء من مكوناته حدا أعلى هو فيها مصداق قوله تعالى (رب العرش العظيم) (رب العرش الكريم) وقول الصادق المصدوق صلى الله عليه وسلم « لكل شيء سنام » الحديث .

وهذا لا يخفى بالضرورة على من له أدنى نظر واستدلال . وهى سنته تعالى فى جميع الموجودات . والزمان أيضا كذلك بل الماء والهواء .

فاذا عرفت ذلك وبان لك شيء مما هو عليه صلى الله تعالى عليه وسلم من الرعاية الربانية بحضرته ، وتفضيله على جميع خلقه ، فلا يسعك عقلا الا أن تقول ما كان ظهور شخصيته الشريفة ، الا فى أزهى وأعلى عصور الدنيا بأجمعها ، حتى يكون ملائما ومناسبا لذلك المقام العالى ،

ولا يكون ذلك الزمان ضرورة الا حدا وسيطا فى الدنيا بأجمعها كما يعرف ذلك من تبليغ الرســل عليهم الصلاة والسلام أممهم بالتعريف بشخصيته الشريفة واستمرار دعوته صلى الله تعالى عليه وسلم فى البلاغ الى يوم القيامة .

وانى أضرب لك مثلا تقريبا لذلك وهو أن تقول ان جميع الأنبياء والمرسلين كالمقدمات فى كل شىء ، ولا تفهم النتائج الا بمقدماتها ، ولا تعرف الا منها ، فهم صلوات الله وسلامه عليهم عرفوا الناس ما غاب عنهم ، وأسسوا لهم فكرة التعرف بذاته الشريفة التى سيظهرها الحق فى الزمن المناسب لها .

ولك أن تقول أيضا كمن يحضر شيئا من الأدوات التى يظهر بها الغرض المراد لذلك المحضر .

فالأدوات عنوان الفعل المراد ، وبعد ظهور ذلك الفعل المراد يعرف أثره فى الخارج ، وعند ظهوره هو تكون قد تلاشت الأدوات فى صورته ولم يبق الا هو المشاهد المعاين . فتقديم الأنبياء خلقا وايجادا دنيويا ما هو الا لبيان اظهار تلك الذات المرادة التى لم يظهر الغرض المراد منها الا بظهورها . فتقدم الأنبياء والمرسلين على وجوده صلى الله تعالى عليه وسلم فى الحياة الدنيا لا يعدو أن يكون مثلا للسابق الذى أبناه ، وهو مفاد القرآن المجيد والسنة المطهرة حتى من عاصره من أصحابه الذين وصفهم الحق قبل أن يخلقوا فى التوراة والانجيل (محمد رســول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم تراهم ركعا سجدا يبتغون فضلا من الله ورضــوانا . سيماهم فى وجوههم من أثر السجود ذلك مثلهم فى التوراة . ومثلهم فى الانجيل كزرع أخرج شطأه فآزره فاستغلظ

فاستوى على سوقه يعجب الزراع ليغيظ بهم الكفار . وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات منهم مغفرة وأجرا عظيما) . فهذا وصف الحق عز وجل لحضرته صلى الله تعالى عليه وسلم ولأصحابه فى القرآن المجيد وأيضا وصفهم تعالى فى التوراة والانجيل قبل أن يخلقوا . وما ذاك الا لمزيد الفضل الخاص بهم دون غـيرهم من جميع رجال الرسل . ولا تنس جميع ما جاء فى وصفهم خاصة فى الكتاب العزيز والسنة المطهرة (وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس) (كنتم خير أمة أخرجت للناس) ولا يكون هذا الا فيمن لا يعـدلهم فى كل شيء أحـد ، وحسبنا قول الحق عـز وجـل فى رفعة شـأنه ، وعـلو مقـامه ، ومنتهى الكمـال اليـه ، وتخصيصه بالخـير الصرف . (وما أرسلناك الا رحمة للعالمين) ولا يخفى عليك أن لفـظ العالمين يشمل كل مكون للحق عـز وجـل ، ولا يقتصر فيه عـلى زمنـه خاصة وما بعده الى يوم القيامة بل السموات وما فيها ، والأرضـين والعرش والدنيا والآخرة والجنة والنار داخل تحت لفظ العالمين . وأيضا قوله تعالى (وما أرسلناك الا كافة للناس بشيرا ونذيرا) تؤيد قوله تعالى (واذ أخذ الله ميثاق النبيين) الآية .

وان قال قائل ما الرحمة التى فى النار ؟

نقول له : الرحمة فيها كانت بحسبها أى ما اقتضته حكمة صاحب الرحمة اكراما لمن جعله كذلك فهى أى الرحمة فى كل شيء بحسبه ولولا ذلك لجعلها تعالى على خلاف ذلك .

وهاك علاوة عما تقدم فى رفعة شأنه صلى الله تعالى عليه وسلم ، قول الحق عز وجل (ورفعنا لك ذكرك) هل رفع ذكره فى حالة وجوده

وبعدها خاصة ؟ أم شمل كل آدمى بما فيهم أبو البشر عليه السلام ؟ قال تعالى (واذ أخذ الله ميثاق النبيين لما آتيتكم من كتاب وحكمة ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم لتؤمنن به ولتنصرنه . قال أءقررتم وأخذتم على ذلكم اصرى قالوا أقررنا قال فاشهدوا وأنا معكم من الشاهدين) فمن تأمل فى هذه الآية الكريمة وجد أن جميع الأنبياء والمرسلين نوّابا عن حضرته صلى الله تعالى عليه وسلم فى البلاغ لما هو مجمع عليه من جميع علماء التفسير وهم عقلاء الأمة ولقد أحسن العارف بالله تعالى البوصيرى حيث قال :

كأنه شمس فضل هم كواكبها
يظهرن أنوارها للناس فى الظلم

ولا يخفى على كل ذى عقل أن الله تعالى جعل الدنيا قرونا قال تعالى (ألم يروا كم أهلكنا من قبلهم من قرن مكناهم فى الأرض مالم نمكن لكم وأرسلنا السماء عليهم مدرارا وجعلنا الأنهار تجرى من تحتهم فأهلكناهم بذنوبهم وأنشأنا من بعدهم قرنا آخرين) وقال تعالى (أفلم يهد لهم كم أهلكنا قبلهم من القرون يمشون فى مساكنهم ان فى ذلك لآيات لأولى النهى) فسمى الحق عز وجل مراحل الدنيا قرونا . والقرن قيل هو مائة سنة أو أقل أو أكثر على الخلاف الاصطلاحى فى ذلك . واذا كانت الدنيا قرونا أو ليس يجعل الحق عز وجل خير خلقه فى خير قرونها؟ والا فما معنى قول الصادق المصدوق صلى الله تعالى عليه وسلم فى الحديث الصحيح المروى عند أصحاب السنن والمسانيد « خير القرون قرنى ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم » الحديث . ويزيدك بيانا ووضوحا على أن حضرته صلى الله تعالى عليه وسلم كان فى خير وأفضل جميع قرون الدنيا من أولها لآخرها وهو أعلى وأرقى أزمنتها ما رواه أصحاب

السنن والمسانيد عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « بعثت من خير قرون بنى آدم قرنا فقرنا حتى كنت من القرن الذى كنت منه » .

لعله قد استنار أمامك السبيل بأن حضرته صلى الله تعالى عليه وسلم بعث فى وسط أزمنة الدنيا ، وهى أعلاها وأرفعها ، فكان من قبله صلى الله تعالى عليه وسلم من اخوانه الأنبياء والمرسلين صلوات الله تعالى وسلامه عليهم أجمعين أرشدوا بنى البشر فى دلالتهم على الله تعالى وعلى الحق الذى هو مراد لله عز وجل من هذا الخلق وخاصة فان ما استناروا به فى الدلالة الى ذلك من الكتب المقدسة مجملة فى كتابه المجيد ، ومفصلة هو الجامع لجميع الرشد الدال على الله المبين للجادة الواضحة الذى أجمل فيه جميع علوم الأولين والآخرين من المبدأ للمعاد . قال تعالى (وأنزلنا اليك الكتاب بالحق مصدقا لما بين يديه من الكتاب ومهيمنا عليه فاحكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم عما جاءك من الحق) (والذى أوحينا اليك من الكتاب هو الحق مصدقا لما بين يديه ان الله بعباده لخبير بصير).

المسألة الأولى :

بيان تطور المخلوقات وبيان أفضلهم

مما ينبغى العلم به ، والمعرفة له أن يعلم كل انسان أن البـارى جل وعلا لما أراد ايجاد المكونات المشاهدات قد جعل أول مخلوق منها بمقتضى نص القرآن المجيد والسنة المطهرة الماء ثم العرش ثم اللوح ثم القلم ثم السموات وما فيها من الأجرام ثم الأرض بما عليها ثم الملائكة ثم الجان ثم مستلزمات الأرض من جماد ونبات وحيوان ثم الانسان ثم مستلزماته فاذا نظرت لهذه الموجـودات كلها لا تجدها الا سـابقة للانسان فى هذا الوجود ، فالانسان آخرها وجودا بنص القرآن العزيز والسنة الغراء .

أفهل تأخيره فى الوجود أضاع فضله وحط من كرامته ؟ كلا بل هو أفضلها وأكرمها على الله تعالى . وتقديمها فى الوجود عليه ماهو الا تكريم له وبيان لفضله وليعرف كل موجود أن هذا هو المفضل المكرم قال تعالى (ولقد كرمنا بنى آدم وحملناهم فى البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا) فهو محل نظر الحق من هذا الخلق ، وهو المقصود من هذا الوجود . فقد أوجد سبحانه كل مكون لأجله قال تعالى (هو الذى خلق لكم مافى الأرض جميعا) وقال تعالى (وسخر لكم مافى السموات وما فى الأرض جميعا منه ان فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون) ولما كان الانسان كذلك ، لم يجعله الحق سبحانه وتعالى على حالة واحدة بل فضل بعضهم على بعض فى كل شىء ذاتا وصفة واستلزاما أى فى التكوين والجمال والأصالة والعقل والعلم والرزق والايمان فلا تجد جميع بنى آدم من بدء التكوين الى أن تقوم الساعة على حالة واحدة يعادل أحدهم فيها الآخر البتة ، وذلك لكمال القدرة فى التنويع فى الايجاد — وعقلا ، لا ضرورة الى الثانى — فمهما رقى بالجد والاجتهاد لا يزيد عما هو مقدر له فى تكوينه ، ومع هذا لايعدل غيره . هذا وان أفضل بنى الانسان الأنبياء ثم المرسلون وهم كذلك ليس واحد منهم يعادل الآخر بنص القرآن العزيز والسنة الشريفة .

ولما كان تفضيل الحق عز وجل لعباده بمقتضى المميزات التى يختص بها من يشاء من خلقه فكذلك الرسل كان تفضيلهم بالمميزات على ما قدمنا وخاصة أن الكمال فيهم ينتهى الى كامل واحد ذلك الكامل هو الذى جاء أخيرا فى الزمن كتأخر آدم عليه السلام فى الوجود ليعرف فضله كما قدمنا وأنه ليس يعلو عليه فى الفضل مخلوق له تعالى ولابد أن يكون أفضل خلق الله من بنى آدم الذين هم أفضل خلق الله تعالى ،

اذ لو وجد أكرم منهم على الله تعالى لكان أفضل خلق الله تعالى من ذلك الأفضل . ومن قال غير ذلك فقد ارتكب شططا وحسبك فيه مخالفته لسائر المسلمين .

فقد بان لك أنه صلى الله تعالى عليه وسلم أرسل على رأس أفضل المكرمين ليعلم بفضله العام والخاص من عباد الله الموفقين (الله يجتبى اليه من يشاء ويهدى اليه من ينيب) .

مسـألة

تجب معرفتها ولزاماً علينا بيانها ولا يعقلها إلا العالمون ولا ينكرها إلا من قصر عقله عن إدراكها

لا يخفى على من نور الله تعالى بصيرته بنور الايمان ، وحققه بنور اليقين ، ان الله تعالى اقتضت حكمته وجود الموجودات على حالتين كما قدمنا لذلك من البيان الواضح .

وهنا نقول : —

ان من مقتضى كمال ذلك ، حتى العقائد فيما غاب عن بنى البشر ، وقد وضحه الحق تبارك وتعالى بالبيان الكامل ، وضرب الأمثال حتى صار لهم ما غاب عنهم كالمشاهد المحسوس الملموس . فسبحانه لا نحصى ثناء عليه . وذلك كان على ألسنة الرسل صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين المبشرين المنذرين . فأوضحوا لنا أن هذا الوجود على مقتضى آثار الرحمة والغضب له تبارك وتعالى (فانظر الى آثار رحمة الله) (ورحمتى وسعت كل شيء) (وكلوا من طيبات ما رزقناكم ولا تطغوا فيه فيحل عليكم غضبى ومن يحلل عليه غضبى فقد هوى) (أفطال

عليكم العهد أم أردتم أن يحل عليكم غضب من ربكم فأخلفتم موعدى) وقال تعالى (ويعذب المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات الظانين بالله ظن السوء عليهم دائرة السوء وغضب الله عليهم ولعنهم وأعد لهم جهنم وساءت مصيرا)

فدلت الآيات على أن لصفة الرحمة آثارا ، ولصفة الغضب كذلك ، وقدم سبحانه الرحمة لشمولها وخاصة أنه جل شأنه نعت نفسه تعالى بالرحمن الرحيم . وقد جعل للخير أصلا واحدا يدعو له وبه واليه . وكذلك جعل للشر أصلا واحدا يدعو اليه وبه . ولكل من هذين الأصلين أنصار وأعوان يدعون لأصليهما فى الدعوة والبلاغ مع مباشرة أحدهما لدعوته مدة الدنيا اذ بمقتضى تكوينه تصلح لبقاء طول هذا الزمن ، ولأن بمقتضى تكوين الآخر عدم صلاحية البقاء له جعل له رسلا تترى على ذلك المبدأ الواحد الذى لا يتغير ولا تبديل فيه ، مع مختلف طبقات الأزمنة وسمى سبحانه وتعالى لبنى البشر من يقوم بدعوة الخير رسولا . قال تعالى (رسلا مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل) (وما أرسلنا من رسول الا بلسان قومه ليبين لهم) وعرف عقلاء عباده بمقتضى ما جبل عليه أن يكون انسانا ذكرا حرا بالغا عاقلا من بنى آدم يوحى اليه بشرع يعمل به ويؤمر بتبليغه لعباده الذين يغيب عنهم مالا يدركونه الا بالارشاد والبيان . اذ فطرتهم كذلك .

ولما كان حال بنى البشر مغايرا لحال غيرهم من الجن المخاطبين المكلفين بالشرائع والأحكام الالهية ، كان البلاغ اليهم والارشاد لهم لا يكون الا كذلك على ألسنة خلق منهم ظاهرين لهم يعرفونهم بأنسابهم وبنشأتهم بينهم التى يرون فيها الصلاحية لما يدعونهم اليه فى المستقبل

من التبشير والانذار . ولا يكون ذلك فيهم الا بعد أن يبلغ ذلك المبشر المنذر حد الكمال من جميع القوى البشرية . ولا يصح ذلك منه ولا تقبل دعوته فى ذلك الا اذا كان بوحى سماوى مصدق بالمعجزة الخارقة للعادة البشرية ، التى يستحيل الاتيان بها من أمثاله بنى البشر المتواترة المؤيدة بالتصديق البالغة مبلغ (صدق عبدى فى كل ما يبلغ عنى) . وبها ينقطع دعوى كل مدع لذلك المقام العالى .

وان المخاطبين الذين يرسل اليهم الرسل لا يخاطبون بذلك البلاغ ولا تسرى عليهم أحكام التكليف الا اذا بلغوا مبلغ الرجولة الشرعية التى يصح بها المؤاخذة لشروط التكليف ، حتى يترتب عليها الثواب للمطيع المجيب لدعوة من يدعوه وعقاب من يخالفه فى ذلك .

وأما غيرهم وهم الجن فقد خلقهم الله تعالى بفطرة خاصة لهم باعتبار أصلهم . فالمعرفة للخير والشر فطرة طبيعية لهم وعليها خلقوا . فهم ليسوا فى حاجة الى الارشاد ولا الى المعرفة لبيان ما غاب عنهم . وما كان تكليفهم الا لامتثال الأوامر واجتناب النواهى الالهية . ولذا أجمع العقلاء من الأمة الاسلامية بأنهم مخاطبون بفروع الشريعة من حين خلقهم أى من وقت نزولهم من بطون أمهاتهم فكان التميز والادراك لهم فطرة طبيعية . اذ أن تكوين هذا الجنس مغاير لغيره لحكمة التنويع فى الابداع والايجاد فهو أقوى عنصرا من بنى آدم المكلفين معه بالتكاليف الشرعية . وذلك بأنواع مختلفة منها أنه يستطيع التأثير عليه ولذا (قال) للحق عز وجل (أرأيتك هذا الذى كرمت علىّ لئن أخرتن الى يوم القيامة لأحتنكن ذريته الا قليلا) وذلك من غير أن لا يشعر به ولا يراه . (انه يراكم هو وقبيله من حيث لا ترونهم) وقد سمى الحق عز وجل هذين الجنسين

المتغايرين فى التكوين بالثقلين فى الكتاب العزيز والسنة المطهرة وهم أهل التكاليف المخاطبون بالحل والحرمة من جميع الأوامر والنواهى الالهية لما هو مترتب عليهما من صلاح الدنيا والدين الموصلين الى معرفة الخالق جل وعلا الموجبين لرضوانه المبعدين عن غضبه تبارك وتعالى وهما الموصلان الى المآلين اللذين خلقا لأجلهما والى كل منهما يعودان هذا .

ولا يخفى على ذوى العقول الراجحة أن جميع الموجودات هى آثار الصفات له تعالى . وأن كل فرد منها مصدر الأثر تلك الصفة يظهر ذلك الموجود بها . وأن أصل أصول هذه الموجودات هذان الأثران . وقد قدمنا قريبا أن الله تعالى خلق الموجودات على المقابلة والمماثلة وهما الأصبعان المرادان فى الحديث الشريف وهما الصفتان المتقابلتان له جل وعلا . هذا وقد أبان لنا القرآن الكريم والسنة المطهرة ذلك من الآيات التى قدمنا آنفة الذكر وهذا الحديث القدسى المروى عند جميع أصحاب السنن والمسانيد « ان الله كتب فى كتابه فهو عنده فوق العرش قبل خلق الخلائق رحمتى غلبت غضبى » فجعل سبحانه وتعالى تكوينهم على هذين الأصلين . وجعل مصدر الرحمة واحدا ، وأبانه فى كتابه العزيز بقوله تعالى (وما أرسلناك الا رحمة للعالمين) أجمع عقلاء الأمة على أن حضرته صلى الله تعالى عليه وسلم هو النفس الرحمانى المنبعث فى جميع الوجود الامكانى . وعليه فدعوة جميع الرسل واحدة متحدة من لدن خلق البشرية الى أن تقوم الساعة . فالرسل يحملون تلك الرحمة ويدعون بها واليها الى أن ظهر مصدرها ، والعلماء يحملونها ويدعون بها واليها الى أن تقوم الساعة . فسلسلة الرحمة واحدة من بدء التكوين لنهايته ومصدرها واحد ، كما هو مفاد الكتاب والسنة والاجماع .

اذ لم يخلق الحق عز وجل شيئا من مكوناته سواء أكان جسا أو معنى الا وجعل له مصدرا يفهم منه ويعقل عنه ذلك المخلوق .

ولا تكون تلك الصورة ولا تظهر الا فى أفضل أنواع الموجودات كلها ، حتى لا يكون فوقها فى الفضل الا الحق عز وجل . ولم يكن فى الموجودات أفضل من بنى آدم فالصورة هى محل تجلياته وفيوضاته وتنزلاته وانعاماته على عباده . ولم تر ولم تعرف من الكتاب والسنة أفضل من حضرته صلى الله تعالى عليه وسلم . فمن هنا حكم عقلاء الأمة على أن حضرته صلى الله تعالى عليه وسلم هو صورة رحمة الله تعالى . ولقد أحسن العارف بالله تعالى حيث قال : « الصلاة والسلام عليك يا رحمة الله فى صورة انسان » .

اذ لا يخفى على كل ذى عقل سليم أن القادر المبدع جل وعلا جعل لأثر صفة الرحمة له تعالى صورة سماها أولا بالنور الذى كشف به لجميع مكوناته غياهب الدياجى من المعلومات حسية ومعنوية حتى تتميز به الأشياء بعضها عن بعض حتى الاجمال والتفصيل . وفتق به رتق المغيبات بالبيان والتمثيل وجعلها حقيقة لجميع تلك الحقائق من المكونات قبل ظهور المحسوسات وأبان ذلك فى صورة وجعلها لمن أرسله رحمة للعالمين (وما أرسلناك الا رحمة للعالمين) .

هذا وقد جعل سبحانه وتعالى لأثر تلك الصفة المقابلة للرحمة وهى صفة الغضب صورة من النار وجعلها حقيقة لما يقابل ذلك . وأبان لعباده أنه مضاد لهم وهى صورة ابليس اللعين (والجان خلقناه من قبل من نار السموم) وجعله سبحانه مع الملائكة الذين خلقوا من آثار صفة الرحمة . وجعل الشر بالقوة فيه وهو أى الشر لا يظهر الا عند خلق

الخير الذى يقابله اذ لا تظهر الأشياء ولا تعقل الا بالمقابلة أو المماثلة .
وبضدها تتميز الأشياء (سبحان الذى خلق الأزواج كلها) ولما تم خلق
آدم عليه السلام ظهر اللعين بما هو منطبع عليه وكمين فيه بالقوة فنظر
الى ظاهر تكوين آدم عليه السلام وأبى تعظيمه وشكر الله على ابداعه
وظن أن تعظيمه تعظيم لغير الله تعالى فابتدر ما حكى الحق عز وجل
عنه فى كتابه العزيز بقوله (قال أأسجد لمن خلقت طينا ؟) (قال لم أكن
لأسجد لبشر خلقته من صلصال من حمأ مسنون) (قال أنا خير منه
خلقتنى من نار وخلقته من طين) ولما لم يكن وقتئذ من أهل الخطاب
الا هو والملائكة وقد خاطبهم الحق عز وجل قبل (انى جاعل فى الأرض
خليفة) ذلك لتأسيس ما يكونون عليه محل نظره جل وعلا . لا جهلا
منه ولا خيفة . وقد خاطبهم سبحانه وتعالى بقوله (واذ قلنا للملائكة
اسجدوا لآدم فسجدوا الا ابليس أبى واستكبر وكان من الكافرين)
ومع هذا فالرحيم الرحمن لم يتركه هملا على ضلاله ، بل لفت نظره
لما هو فيه وعليه ولمن هم معه من الملائكة وخاصة أنه عارف بأنه موجود
مع غير جنسه من الملائكة الذين خلقوا من آثار رحمة الله تعالى ، وهو
مخلوق من آثار غضبه تعالى . وأنار سبحانه وتعالى له الطريق بأنه
لم يرد منه السجود الذى هو بمعنى العبادة ، انما هو اظهار لشكر المنعم
الواجب عند رؤية الابداع ، ولم يكن أبدع من هذا التصوير من التراب
الى البشرية وخاصة أنه قد جمع فيه تعالت قدرته بين الرحمة والغضب
فى مخلوق واحد أصله من تراب ثم طين لازب ثم صلصال ثم صـــار
بشرا سويا ولا يجمع بين الضدين الا الاله القادر الذى يستحق الشكر
والتعظيم على هذه الصنعة البديعة . فقال تعالى (ما منعك أن تســجد
لما خلقت بيدى) أى بصفتى ولكن لسبق شقوته لم يلتفت ، وبقى على

ضلاله وطغيانه لحكم عالية لم يظهر أثرها الا بعد . ولذا ترى آتباعه دأبوا فى الضلال على ذلك المبدأ ويظنون أن تعظيم المخلوق من الأنبياء والأولياء والصالحين تعظيم لغير الله تعالى !!!

ويقولون كيف تدعو مخلوقا وهو لا يزيد عنا شيئا ؟ ! فاعمل فتكون مثله أو أحسن منه . أنظر الى قول الأول (أنا خير منه) فلقد وطد لهم الدعامة الأولى وأسس لهم هذا المبدأ ، فهم لا يحيدون عن مبادئه فى كل شىء .

وقع لى سؤال فى هذا المعنى . وهو :

هل الله تعالى كان راضيا عن ابليس وقت أن كان رئيسا للملائكة أو غاضبا عليه ؟ وهل الله تعالى كان غاضبا على سيدنا عمر وقت أن كان يئد ابنته أو راضيا عنه ؟ فأجبت فيه بمقتضى معرفتى للحق عز وجل : وهو أن الله تعالى عنده كل أعمال عباده آنية وليس هناك ما يغيب عنه ، وهو تعالى خلق ابليس للشر ، ومهما عمل من الخير لم يرض عنه . وخلق عمر للخير لو وأد جميع بنات أهل عصره لم يغضب عليه . اذ أنه تعالى كامل بالفعل وكل ما هو له حاصل لديه ، وليس كاملا بالقوة . وليس له كمال ينتظر فهو تعالى كامل بالفعل .

هذا ولا تعجب لخلق ربك صورا للمعانى اذ قدرته تعالى صالحة لذلك فلو شاء وجود انسان من الهواء أو حوتا من النار لفعل . فسبحانه من اله قادر (ان الله على كل شىء قدير) (فعال لما يريد) ولا تنس أنه تبارك وتعالى هو الخالق للمعانى والصور ، وجعل جل شأنه لكل معنى صورة تغاير معنى الآخر تمتاز بها الصورة عن المعنى الآخر فلا يفهم المعنى الا بالصورة الموضوعة له قال تعالى (الذى خلق الموت

والحياة) فالموت معنى من المعانى وله صورة تدل عليه . والحياة كذلك فى كل شيء بحسبه . والخير معنى من المعانى وله صورة تدل عليه والشر كذلك . والايمان معنى من المعانى وله صور تدل عليه والكفر كذلك والنفاق أيضا وكذا الحب والبغض والحزن والفرح . ولا تنس أيضا أنه تعالت عظمته جعل للمعانى صورا فى الدنيا وهذه الصور لها معان كالحسنات للخير والسيئات للشر وهذه فى الآخرة تكون صورا . أفلا تذكر قوله تعالى (وكل انسان ألزمناه طائره فى عنقه) ووزن الأعمال قال تعالى (فأما من ثقلت موازينه فهو فى عيشة راضية وأما من خفت موازينه فأمه هاوية) وحديث « ان أحدكم يظلل تحت ظل صدقته » الحديث . وحديث « سبعة يظلهم الله فى ظله يوم لا ظل الا ظله » الحديث وحديث « يؤتى بالموت على صورة كبش » الحديث .

لعلك قد فهمت أنه لابد للخير من صورة تعرف بها وتكون صادرة عنها ، وان اختلفت أنواع طرقها وأساليبها وأنواع مصادرها ومواردها . وللشر كذلك ذراعا بذراع وشبرا بشبر على ما سنبين قريبا . فقل جل الصانع المبدع فسبحانه من اله عظيم قادر (الذى أحسن كل شيء خلقه وبدأ خلق الانسان من طين) .

واعلم يا أخا النصيحة ياذا العقل السليم أنه يجب عليك أن تعتقد أنه عز وجل هو الخالق للخير والشر . قال تعالى . (وان تصبهم حسنة يقولوا هذه من عند الله وان تصبهم سيئة يقولوا هذه من عندك قل كل من عند الله فما لهؤلاء القوم لا يكادون يفقهون حديثا) . ومتى عرفت هذه فلا يسعك الا أن تعتقد أنه تعالى كما جعل للخير رسلا مبشرين ومنذرين ، وقد عرفناهم آنفا ، فكيف لا يجعل للشر كذلك مبشرين به ضد الخير ولأتباعهم كذلك . والا لقضى الخير على الشر لعدم المقاومة

بالضدية ، والله تعالى لم يجعل فى مكوناته شيئا على حالة واحدة ألبتة . فكيف يجعل العقائد التى هى أساس المكونات والتكاليف الشرعية على حالة واحدة ؟ وكما قال العارف بالله :

فللخير أهل يعرفون بهديهم اذا اجتمعت عند الخطوب المجامع
وللشر أهل يعرفون بوصفهم تشير اليهم بالفجور الأصابع

وان قال قائل هناك أشياء على حالة واحدة كالعرش أو الكرسى أو اللوح أو القلم مثلا ، فقل له تأمل فلا يسعك الا أن تقول هى كذلك زوجان ، الجوهرية وما تركب منها ، وما غشيها من الأنوار كذلك .

ولما كان آدم وبنوه أفضل المكونات ، وكان جامعا لأنواع الكمال وأمهات الفضائل من العوالم العلوية والسفلية دنيوية وأخروية من عرش ولوح وقلم وكرسى لاشتماله على محو واثبات . وتغيير وتبديل وأجرام وأفلاك وابراج وأملاك وشمس وقمر وماء وهواء وجماد ونبات وحيوان وسائر المتقابلات والمتماثلات حتى فى المعتقدات من الخير والشر بهذا كله حاز الفضل والاكرام . ولقد أحسن أمير المؤمنين على بن أبى طالب رضى الله عنه وكرم الله وجهه حيث قال :

دواءك فيك وما تشعر وداؤك منك وما تبصر
وتزعم أنك جرم صغير وفيك انطوى العالم الأكبر
وفيك الكتاب المبين الذى بأحرفه يظهر المضمر

قال تعالى (وفى أنفسكم أفلا تبصرون) تشتمل على سائر المتقابلات مما هو فى جميع المكونات لاشتماله عليها . فهو فى تكوينه محتمل لقابلية الكمال بالفعل أو النقص بالفعل لاشتماله على الأمر الجامع لهما وهو اختصاصه بالكمال بالقوة اذ قد جعله سبحانه وتعالى قابلا

صالحا للحالتين للكمال والنقص قال تعـالى (وهدينـاه النجـدين) فالموجـودات اما على الكمال بالفعـل وهم الملائكة (لا يعصون الله ما أمرهم) والسموات والأرض والجبال (ائتيا طوعا أو كرها قالتا أتينا طائعين) ويقابله النقص بالفعل وهم الدواب العجموات (ان شر الدواب عند الله الصم البكم الذين لا يعقلون ولو علم الله فيهم خيرا لأسمعهم ولو أسمعهم لتولوا وهم معرضون) .

اذن فبنو آدم جماع لذلك فمنهم من غلبت صلاحيته على شقوته وهدى الى الله بارشاد المرسلين فقد رقى لحد أهل الكمال ، وهم الذين لا يعصون الله ما أمرهم وهم أهل الصراط المستقيم الذين رضى الله عنهم ورضوا عنه ، والدائبون منهم على ذلك هم كذلك قال تعالى (والذين اتبعوهم باحسان رضى الله عنهم ورضوا عنه) فهم حزب الله وأتباع الخير والعمل به والدعوة اليه .

وأما من غلبت عليه شقوته وأبى وأعرض عن اجابة دعوة المرشدين ، وخالف اجماع المسلمين ، ودأب على مبادىء الضالين ، الذين سبقوه بهذه الضلالات والمخالفة والزيغ ، فقد انحط الى درجة الكافرين وألحق بهم لالحاقهم بالبهائم قال تعالى (والذين كفروا يأكلون كما تأكل الأنعام والنار مثوى لهم) (ولقد ذرأنا لجهنم كثيرا من الجن والانس لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بهـا أولئك كالأنعام بل هم أضل أولئك هم الغافلون) (ان شر الدواب عند الله الذين كفروا فهم لا يؤمنون) .

فالحق تبارك وتعالى لم يترك هذا المخلوق المكرم هملا وخاصة لما هو عليه من أكبر الحاجة الى الارشاد والبيان لمقتضى تكوينه فى هذه

الدنيا التى جعلها الله تعالى تمحيصا وتمييزا لعباده الذين أحاطهم فيها بشتى الفتن والبلايا وخاصة أنه قد جعل وجوده مقترنا بشر البلايا وهو أكبر عدو وحاسد له لاشتماله على هذه المميزات الظاهرة والباطنة وخاصة فقد مكّن لهذا العدو له قوة الاستطاعة بالتأثير عليه من غير أن يراه ، ولا يشعر به . قال تعالى له لما ظهر منه الشر المقابل للخير (أرأيتك هذا الذى كرمت علىّ لئن أخرتن الى يوم القيامة لأحتنكن ذريته الا قليلا . قال اذهب فمن تبعك منهم فان جهنم جزاؤكم جزاءا موفورا . واستفزز من استطعت منهم بصوتك وأجلب عليهم بخيلك ورجلك وشاركهم فى الأموال والأولاد وعدهم وما يعدهم الشيطان الا غرورا) .

ولكن الرءوف الرحيم بعباده ، قد أبان لهم طرق تأثيره وتداخل حيله ، وتغييره للجادة التى أبانها لعباده أجمعين ، بعد أن أودعهم جميع القوى المميزة بين الحق وضده وأوضح لهم ذلك بالفطرة فى التكوين وبالبيان الصريح فى كتابه العزيز ، حتى صار أوضح من المشاهد المعاين . وأمر تعالى عباده الايمان به ، ومن لم يؤمن بذلك ، فقد كفر واعتدى على خالقه جل وعلا . وخاصة أنه تعالى لفت نظرهم ونبه وحذر من اتباعه واغوائه قال تعالى (يا بنى آدم لا يفتننكم الشيطان كما أخرج أبويكم من الجنة ينزع عنهما لباسهما ليريهما سوآتهما انه يراكم هو وقبيله من حيث لا ترونهم انا جعلنا الشياطين أولياء للذين لا يؤمنون) وقال تعالى (وقل لعبادى يقولوا التى هى أحسن ان الشيطان ينزغ بينهم ان الشيطان كان للانسان عدوا مبينا) وقال تعالى (ألم أعهد اليكم يا بنى آدم أن لا تعبدوا الشيطان انه لكم عدو مبين) وخاصة أنه قد أبان الحق سبحانه وتعالى تكوينه من مبدئه لنهايته . ومن أى

جنس ؟ ولأى غرض خلق ؟ وعرفهم سبحانه أن جميع أنواع الخير المرادة له تعالى ، المرضى عنه هو ما أبانه بالفطرة والبيان . وما يقابله ويضاده هو الشر والخسران . فعلى هذا صورة الشر لا تنحصر الا فيه ، ولا تعقل الا به ، ولا تفهم الا عنه ، فهو أصلها ومصدرها وقيامه بها ، مقابلة لدعوة الخير محاذية لها خطوة بخطوة ، وأنت تعرف الخير المرضى له تعالى والشر المضاد له بالفطرة بتمييزك وادراكك وأنه هو ما غاير الحق الذى جاء على لسان المرشدين صلوات الله تعالى وسلامه عليهم أجمعين .

فهو وأعوانه الداعون الى الضلال لا يحيدون عنه الى يوم القيامة ودعوته فى كل طرق الدعوات ومراحلها ضد دعوة الخير فى كل طرقها ومراحلها كما بين ذلك سبحانه وتعالى فى كتابه العزيز . قال تعالى محتجا على أهل الخطاب وهم أهل التكليف برسله الذين أرسلهم لهداية المطيعين من الجن والانس (رسلا مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل) (وما نرسل المرسلين الا مبشرين ومنذرين) فهؤلاء حقا بشروا عباد الله بما وعد المطيعين منهم بالرضوان وأنذروهم من عذاب الله وحذروهم عقابه (وما أرسلنا من رسول الا بلسان قومه ليبين لهم فيضل الله من يشاء ويهدى من يشاء وهو العزيز الحكيم) وهذا بالنسبة للمؤمنين من الجن والانس ويقابل هذا ما قابل به تعالى هؤلاء المؤمنين من حال الضالين تبعة ابليس وأعوانه قال تعالى (الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء والله يعدكم مغفرة منه وفضلا والله واسع عليم) فقد حذّر تعالى عباده كافة مهتدين وغيرهم عن متابعة ابليس وجنوده بل ومن الضالين المضللين المخالفين للمؤمنين أتباع الرسل . وخاصة أنه قد بيّن سبحانه الفرق بين الحالتين بما تدركه عقولهم بقوله تعالى (ان يدعون من دونه الا اناثا وان يدعون الا شيطانا مريدا لعنه الله

وقال لأتخذن من عبادك نصيبا مفروضا ولأضلنهم ولأمنينهم ولآمرنهم فليبتكن آذان الأنعام ولآمرنهم فليغيرن خلق الله ومن يتخذ الشيطان وليا من دون الله فقد خسر خسرانا مبينا) اذن فلابد من متابعة فريق من الضالين لابليس الداعى لذلك أولا وأعوانه من الشياطين الذين يعتقدون أنهم على الحق قال تعالى (فزين لهم الشيطان أعمالهم فصدهم عن السبيل فهم لا يهتدون) فهؤلاء هم المحققون لابليس أمنيته وغرضه من هذا الخلق قال تعالى (ولقد صدق عليهم ابليس ظنه فاتبعوه الا فريقا من المؤمنين وما كان له عليهم من سلطان الا لنعلم من يؤمن بالآخرة ممن هو منها فى شك وربك على كل شىء حفيظ) ويقابل هذا ما من نبى ولا رسول الا وتمنى أن يؤمن به كل أهل عصره ممن هو مرسل اليهم وخاصة حضرته صلى الله تعالى عليه وسلم الموصوف بالرءوف الرحيم .

فقد سلاه الحق عز وجل وطيب خاطره بقوله تعالى (وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبى الا اذا تمنى ألقى الشيطان فى أمنيته فينسخ الله مايلقى الشيطان ثم يحكم الله آياته والله عليم حكيم ليجعل مايلقى الشيطان فتنة للذين فى قلوبهم مرض والقاسية قلوبهم وان الظالمين لفى شقاق بعيد وليعلم الذين أوتوا العلم أنه الحق من ربك فيؤمنوا به فتخبت له قلوبهم وان الله لهاد الذين آمنوا الى صراط مستقيم) فقد عرفت أن الرسل يدعون الى الخير وهذا وأعوانه يدعون الى الشر ، وأنت تعرف بما أودع فيك من القوى العقلية ما كان على سنن الله تعالى لعباده على يد رسله فهو الخير الذى يجب اتباعه وخاصة أنه هو الذى يجمع عليه عقلاء الأمة الاسلامية سلفها وخلفها ، وما كان على خلاف ذلك من شراذم الضالين وفرق الزائفين . فيجب عليك أن تنبذه وتبعد عنهم وعنه ، وتعتقد أن هذا هو الشر المقابل للخير ، وهو من وحى الشيطان للمغرورين

الضالين المخالفين لاجماع العقلاء من المسلمين ، وخاصة أنه ثابت بالوحى الالهى . قال تعالى (وما كان لبشر أن يكلمه الله الا وحيا أو من وراء حجاب أو يرسل رسولا فيوحى باذنه ما يشاء انه على حكيم) فأنت تعرف أن الرسول للبشر الذى جعل الله تكوينه صالحا لهذا الوحى الالهى وتعرف أن الذى لا يأتى الا بالمخالف المعارض لا يكون الا هو المقابل لذلك وخاصة أنه قد عرفك تعالى بقوله (وكذلك جعلنا لكل نبى عدوا شياطين الانس والجن يوحى بعضهم الى بعض زخرف القول غرورا ولو شاء ربك ما فعلوه فذرهم وما يفترون) .

ولا يخفى عليك أنه لما كان حال رسل الله ليس الا للخير والدعوة اليه ، وأمرهم أن يأمروا عباده أن يدأبوا عليه ، ومع هذا فقد جعل لهم ما يعارضهم فى هذه الدعوة من البشر الذين هم آلة ابليس اللعين الذين يواجه بهم عباد الله المخلصين من المرشدين والتابعين لهم قال تعالى (وان الشياطين ليوحون الى أوليائهم ليجادلوكم وان أطعتموهم انكم لمشركون) فهؤلاء أعداء رسل الله فكذلك أتباعهم أعداء لأتباعهم وذلك لحكمة وجود الخير والشر فى الدنيا مستمرين الى يوم القيامة (ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة . ولا يزالون مختلفين الا من رحم ربك ولذلك خلقهم) هذا وأن للرسل أتباعا وأنصارا قال تعالى (قل هذه سبيلى أدعو الى الله على بصيرة أنا ومن اتبعنى) وكذلك للضال المضل أتباع وأنصار قال تعالى (اذهب فمن تبعك منهم فان جهنم جزاؤكم جزاءا موفورا) وكما أن الرسل أولياء المهتدين قال تعالى (انما وليكم الله ورسوله) (النبى أولى بالمؤمنين من أنفسهم) فكذا قد جعل سبحانه وتعالى الشيطان وليا لأتباعه اذ قال عز من قائل (الذين آمنوا يقاتلون فى سبيل الله والذين كفروا يقاتلون فى سبيل الطاغوت فقاتلوا أولياء

الشيطان ان كيد الشيطان كان ضعيفا) وكما أن الرسل عليهم الصلاة والسلام لهم حزب قال تعالى (ومن يتول الله ورسوله والذين آمنوا فان حزب الله هم الغالبون) فكذلك لابليس وأتباعه المضللين لهم حزب يقابل حزب الله تعالى . قال تعالى (ان الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدوا انما يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب السعير) وقد أبان سبحانه وتعالى حال الأتباع لكل فى الآخرة . فقال تعالى (يوم ندعوا كل أناس بامامهم فمن أوتى كتابه بيمينه فأولئك يقرأون كتابهم ولا يظلمون فتيلا) (يوم لا يخزى الله النبى والذين آمنوا معه نورهم يسعى بين أيديهم وبأيمانهم) وأما حزب الشيطان أى أتباع ابليس الذين أضلهم وضللوا غيرهم من المستضعفين فقد قال تعالى فيهم (وبرزوا لله جميعا فقال الضعفاء للذين استكبروا انا كنا لكم تبعا فهل أنتم مغنون عنا من عذاب الله من شيء قالوا لو هدانا الله لهديناكم سواء علينا أجزعنا أم صبرنا ما لنا من محيص) وكما أن الرسل يدعون الى الله تعالى والى الخير ليرشدوا عباده ويبينوا لهم الهدى من الضلال كما قال تعالى (وما أرسلنا من رسول الا بلسان قومه ليبين لهم فيضل الله من يشاء ويهدى من يشاء وهو العزيز الحكيم) فكذلك سمي سبحانه وتعالى الداعين الى الضالين رسلا قال تعالى (ألم تر أنا أرسلنا الشياطين على الكافرين تؤزهم أزا) وكذلك كما جعل سبحانه وتعالى رسله يدعون اليه عز وجل وسمى هذه الدعوة اليه جل وعلا قال تعالى (ادع الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتى هى أحسن ان ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين) فكذلك جعل للعين دعوة للشر والضلال قال تعالى (وقال الشيطان لما قضى الأمر ان الله وعدكم وعد الحق ووعدتكم فأخلفتكم وما كان لى عليكم من سلطان الا أن دعوتكم

فاستجبتم لى فلا تلوموني ولوموا أنفسكم) فقد عرفت أن للخير والحق والهدى أصل فى الدعوة اليه ، ولهم أتباع يدأبون عليه وينسجون على منواله باجماع خيرهم وعقلائهم الى يوم القيامة . وكذلك للشر والضلال والزيغ أصل للدعوة وله أتباع يدأبون عليه وينسجون على منواله لا يحيدون عنه الى يوم القيامة . هذا وقد أبان سبحانه وتعالى ذلك بقوله (قل من كان فى الضلالة فليمدد له الرحمن مدا) وقد قال عز وجل فى مقابله (والذين اهتدوا زادهم هدى وآتاهم تقواهم) ولما كان سبحانه وتعالى هو الفعال لما يريد المختار فيما يشاء المنفرد بالابداع والايجاد العالم بمصالح العباد قال تعالى (كلا نمد هؤلاء وهؤلاء من عطاء ربك وما كان عطاء ربك محظورا) .

المسألة الثانية فى الخلاصة :

لعله قد اتضح لك مما قدمنا أن الله تعالى جعل لأثر صفة الرحمة صورة واحدة ، وكل من يدعو بها واليها فلا يعنى الا اياها ، ولا يقصد بذلك البيان الا أصلها والمعنى الذى خلقت له وتوصل اليه وخاصة أنه قد أوضح تعالى لعباده أصولها وفروعها وحديها ونهاية الدعوة اليها ، ورسم لها خطة وسماها بالصراط المستقيم .

وكل من حاد عن ذلك فقد خرج عنها وعليها وسماها بالضلال المبين وسمى كل من اتبع هذا الخروج بالمغضوب عليهم والضالين . وعرّفهم ذلك بالفطرة وبيان المرشدين . وصار الأمر معلوما أن كل من يخطر بباله أمر من الأمور المعتقدة التى هى أمور النية أو الأقوال أو الأفعال التى هى أمور الدين والدنيا والآخرة التى عليها مدار التكاليف الشرعية التى لا يتم نظام العالم الا بمراعاتها فى هذه الحياة الدنيا والتى يترتب عليها نتيجة المآل من الثواب مآل أثر صفة الرحمة وقد أبرزها سبحانه فى

صورة حضرته صلى الله تعالى عليه وسلم بقوله : (وما أرسلناك الا رحمة للعالمين) أو العقاب الذى هو نتيجة أثر صفة الغضب وقد أبرزها سبحانه فى صورة ابليس اللعين . وقد حذر عباده من اتباعه فى كثير من الآى الحكيم التى قدمناها ، وقد جعل أيضا لأثر هذه الصفة المقابلة للرحمة تلك الصورة واحدة أيضا تدعو اليها وعنها لا تحيد ، وقد أوضح سبحانه وتعالى أصولها وفروعها وحال من هو أصلها وقائم بها ويبشر وينذر بها ، ومن اتبعوه كذلك يعملون على هذا المبدأ المخالف وينسجون على منواله على ما قدمنا . ولقد أحسن العارف بالله تعالى القائل بأن ابليس رسول الله — أى فى الشر — المقابل للخير . اذ الشر والخير مخلوقان للحق عز وجل وكيف يجعل للخير رسولا ظاهرا يدعو للعمل به لصلاح الدنيا وحسن المآل ولا يجعل للشر المقابل رسولا باطنا يقابل الظاهر يوسوس فى حديث النفس يجرى به من ابن آدم مجرى الدم كالطبيعة الصرفة ، ولا يعرف ذلك الا بمقتضى العقل اذ يرى ما حدثت به نفسه باطنا مضادا للظاهر ومقابلته له فيعرف أنه من وحى الشياطين وضلالاته بالمخالف لما عليه سنن الارشاد من المرشدين بمقتضى أوامر رب العالمين .

ولا يخفى عليك أن لفظ الرسول لهذا اللعين فى عرف الشرع لا يحمل الا على الرسول اللغوى الذى ترسله للبلاغ المقابل للرسول الشرعى ، وقد قدمنا لك تعريف الرسول فى حكم الشرع ، وان كان بالنظر الى كافة تطوراته فى الكتاب العزيز والسنة المطهرة لا يفهم منه الا ذلك على ما قدمنا . اذ فى جميع خطوات رسل الله تعالى مقابل لها على ما قدمت لك ولا تنسى أنه سبحانه وتعالى أنار الطريقين فجعل الخير هو الصريح الواضح الذى جاء فى بيان المرشدين بمقتضى أوامر رب العالمين نزوعا

الى قوله (هذا حلال وهذا حرام لتفتروا على الله الكذب ان الذين يفترون على الله الكذب لا يفلحون) .

والشر هو ضد دعوة المرشدين . وهذا أيضا قد جعله سبحانه وتعالى يعرف بالفطرة التى فطر الله الناس عليها وقد بينه سيد المرسلين بأجلى بيان وأناره بأوضح تبيان فى قوله الشريف صلى الله تعالى عليه وسلم وقد سئل ما البر والاثم يا رسول الله ؟ فقال « البر ما حاك فى صدرك وودت أن تطلع الناس عليه ، والاثم ما حاك فى صدرك وكرهت أن تطلع الناس عليه » قال تعالى (من يهد الله فهو المهتد ومن يضلل فلن تجد له وليا مرشدا) فأهل الحق دائما تستريح ضمائرهم وتطمئن خواطرهم لما يعملونه ولو عن جهل منهم فيسألون أهل الذكر فيجدون لهم النص الصريح من كلام رب العالمين أو من بيان سيد المرسلين أو مما أجمع خيار الأمة من العلماء العاملين ، فهم دائما وأبدا موفقون للصواب لحبهم فيه وميلهم اليه .

وأما غيرهم من الشق المقابل لذلك فتراه دائما نزاعا الى حب المخالفه المعارض اما بطبعه واما بارشاد المرشدين له الى ذلك بقبول الاستعداد فيه ، ومع هذا تراه دائما مترددا متشككا فيما هو عليه وفيه مصداق قوله تعالى فى الأمرين الهدى والضلال (أفمن شرح الله صدره للاسلام فهو على نور من ربه ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقا حرجا كأنما يصعد فى السماء) الآية .

ولا يغرنك ظهور بعض المخالفين فى مراكز الدنياوية ، وخمول بعض أهل الحق المتحققين فيها فلك المثل بفرعون وسيدنا موسى عليه السلام ، والا فانظر الى أهل اللهو والفساد تجدهم أفرع منهم دنيا وذكرى ، والا فالحق أنه ينطبق عليهم قوله تعالى (ومن يشاقق الرسول من بعد

ما تبين له الهدى ويتبع غير سبيل المؤمنين نوله ما تولى ونصله جهنم وساءت مصيرا) .

الفصـــل الثامن

فى كشف الأستار عن حال الضالين فيما فهموا فى معنى بشرية سيد العالمين وتنوير من أضلوهم لعلهم يرجعون الى الحق المبين

نقول : لا يخفى على من أنار الله تعالى بصيرته ، أن دأب الضالين على مبدأ ابليس اللعين ، بنظرهم لظواهر المكونات وعـدم ادراكهم لأسرارها ، وخواصها ، ومزاياها ، وتفضيل البارى جل وعلا بعضها على بعض ، فعموا وضلوا وزاغت منهم الأبصار عن نظر النور الصريح الواضح الذى جعله الحق عز وجـل سراجا منيرا ، وسرا ساريا فى المكونات قريرا ، ورحمة واسعة شاملة . ولم يعد منهم النظر قيد شعرة فى المرئيات عن ظاهرها حسدا مخذولا ، واضلالا مرذولا حقيرا ، وهكذا نشأتهم فى فهم كل مكوّن للحق عز وجل ، وخاصة فيمن هو محل رعاية الحق عز وجل لكل مكوّن ، فتراهم ينظرون الى حضرته بعين كليلة ، ويتعقلون فيما يختص به بعقول عليلة ، فيحكمون على حضرته صلى الله تعالى عليه وسلم بالبشرية العادية الصرفة ، فهم ممن قال الله تعالى (وتراهم ينظرون اليك وهم لا يبصرون) (ينظرون اليك نظر المغشى عليه من الموت) فهؤلاء المعتدون على قدر سيد العالمين ، هم يحتزون حزو الضالين المكذبين ، وهم أتباع ابليس اللعين . والا فما معنى الحديث الصحيح المروى عنـد الترمذى عن جابر بن سمرة رضى الله تعالى عنه قال « رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فى ليلة أضحيان وعليه حلة حمراء فجعلت أنظر اليه والى القمر فوالله الذى لا اله الا هو انه عندى

لأبهى من القمر » يقول شارحه هذا فيمن أنار الله بصيرته بنور الايمان وعين اليقين ، فقد كان ذلك منه فى الوقت الذى قال الله تعالى فيه (وتراهم ينظرون اليك وهم لا يبصرون) فهم على مبدأ ابليس الذى لم ير الا الصور المجردة .

ولقد أحسن العارف بالله تعالى سيدى على وفا رضى الله تعالى عنه حيث قال :

لو أبصر الشيطان طلعة نوره ... فى وجه آدم كان أول من سجد

أو لو رأى النمروذ نور جماله ... عبدالجليل مع الخليل وماجحد

لكن جمال الله جل فلا يُرى ... الا بتخصيص من الله الصمد

فترى هؤلاء الضالين ، يحاولون الغض من عظم سيد العالمين ، الذى جعله الله تعالى أصلا لجميع أمهات الكمال والفضائل ، وحقا لا يرى الشمس الا المبصر ، ولا يسمع الكلام الا سليم السمع ، ولا يذوق لذيذ المطعومات الا سليم الذوق ، ولا يحس الملموسات الا سليم الاحساس .

لا يعرف الشوق الا من يكابده ... ولا الصبابة الا من يعانيها

ولا تعجب من حال هؤلاء الذين هم على غرار ابليس اللعين وحزبه ، ويعملون به ضد الخير وآهله ، فان الله تعالى خلق فى الأشياء التى يستدل بها على عظيم قدرته ، وبديع صنعته ، وحسن تصرفه فى موجوداته ، شواهد واضحة ولهم مثل مطابق لا ينفك عنهم فى مستقذر العقائد بالطبيعة التى فطروا عليها وهو الجعران (الجعل) الذى هو فصيلة الخنفساء أو ذكرها فانه بفطرته وطبيعته لا يأوى ولا يتلذذ الا بالنجاسات ولا يعيش الا فيها ولو أخرجته منها وأسكنته الوردة أو أحسن رياحين الدنيا لهرب وفزع منها ولو قهرته أو سجنته فيها لمات ، لأن استعداد تكوينه وفطرته لتلك القاذورات و لايبتغى شيئا فى حياته الا اياها

ولا يتلمس غيرها ولا يبحث الا عنها . وهكذا كل خبيث لا ينفر الا من كل طيب ولا يهوى الا كل خبيث . وقد قال العلامة ابن الوردى : —
ان طيب الورد مؤذ بالجعل .

وان تشأ فقل ان حالهم كحال من يشتغل فى المجارى والمستقذرات من المستنقعات والمدابغ وغيرها ، وهو بطبعه لا يستقذر هذا ولا ينكره بشمه ولا ينفر منه بطبعه لنشأته عليه وفيه .

أو ان تشأ فقل ان حالهم كحال راكب فرع شجرة ويقطع فيه من تحت رجليه وهو غافل عن أن نهاية القطع يهوى به فتراه فى هذا الحال يجزم أنه على الحق والمنكر عليه على الباطل فهؤلاء فضلا عما تقدم ينسبون أنفسهم الى الاسلام والايمان والعلم والمعرفة وأنهم يدعون الى الحق وما عداهم على الباطل ويجهلون أن السواد الأعظم من المسلمين فى ناحية فى كل عصر وشرذمتهم فى ناحية أخرى .

على أنا قد ذكرنا كثيرا ان مبدع الكائنات جل وعلا جعلها على المقابلة والمماثلة ، وقد بينا ان بالمقابلة يحصل التضاد والعناد ، وبالمماثلة يحصل التآلف والارتباط ، وشرحنا معنى هاتين الجملتين بأن المقابلة كفوق وتحت ، والليل والنهار من حيث النور والظلمة والسواد والبياض وما شاكل ذلك فى المرئيات ، وفى العقائد كالايمان والكفر ، والصالح الموفق والفاسد الضال ، فتراهم دائما متضادين لا وئام بينهما البتة ، وأن المماثلة ككل ما كان فوق يماثله كلما كان فوق وكذا تحت وأمام وخلف كلما كان كذلك يماثله ما كان كذلك وهذا فى المعاين المشاهد وأيضا مثله فى العقائد والوضع الالهى فيها بالتكوين من أن المؤمن يماثله المؤمن ويحن اليه ويعول عليه ، والكافر كذلك وكذا الصالح لا يماثله الا الصالح ، والفاسد أو الضال لا يماثله الا من هو كذلك

فيقدر التماثل فى كل شيء يحصل التآلف بينهما شعرة بشعرة أو ذرة بذرة ومن هنا أرسل المثل « شبيه الشيء منجذب اليه » الذى هو صدره وقلبه :

رأيت النخل يطرح كل قحف   وشوك الخوص منطبع عليه
فواعجبا لذا من صنع لربى   شبيه الشيء منجذب اليه

فهون على نفسك من كثرة الفساد والضالين اذ الواحد من أهل الحق والاجماع يعادل آلافا من أهل الضلال قال تعالى (وان تطع أكثر من فى الأرض يضلوك عن سبيل الله) اذ بانحرافهم عن الجادة والطريق المستقيم ومشاقتهم لله ولرسوله وانصرافهم عن اجماع المسلمين يكونون من مصداق قوله تعالى (وما يؤمن أكثرهم بالله الا وهم مشركون) فان لم يكونوا هم فمن غيرهم ولكن رحم الله البوصيرى حيث قال :

قد تنكر العين ضوء الشمس من رمد
وينكر الفم طعم الماء من سقم

فهؤلاء الضلال تارة يقولون بعدم الوسيلة بالمخلوق ، وأخرى يقولون بعدم الاستغاثة به ، وعدم القسم به ، وعدم زيارته ، والزائر له كالعابد للأصنام ، وعدم نفعه والانتفاع به ، وعدم البركة فيه حيا وميتا ، اذ الموت عندهم عبارة عن العدم المحض كعقيدة اليهود والنصارى .

ولا يعنون فى ذلك كله الا سيد العالمين صلى الله تعالى عليه وسلم ، ويجعلونه أصلا لكل تضليلاتهم ، ومنه يقيسون عليه جميع عباد الله الصالحين اضلالا منهم وتضليلا للبسطاء من المؤمنين فى فهم كلام رب العالمين . وأول آية بها ضلوا وأضلوا عن الجادة الواضحة حين حكى الله عنه فى قوله تعالى (قل انما أنا بشر مثلكم) .

يقول الضال للمساكين الذين يستمعون له ، ها هو كلام الله تعالى يقول فيه : قل لهم يا محمد انما أنا بشر مثلكم يعنى مثلك يا أيها البشر سواء بسواء لا يزيد عنك ولا تزيد عنه فى البشرية شيئا يأكل الطعام ، ويشرب الماء ، وينكح النساء ، ويبول ، ويتغوط ، وينام ، ويسهو ، وينسى ، ويعمل فى الدنيا كأفراد البشر فلا يسع السامع الا أن يقول هذا صحيح . ثم يضم اليه زيادة فى التضليل وتأكيدا للتلبيس على هؤلاء المساكين بقوله : يقول الله تعالى تأكيدا لما يرمى اليه ذلك الضال بقوله قال الله تعالى (قل لا أملك لنفسى نفعا ولا ضرا الا ما شاء الله) (ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير وما مسنى السوء ان أنا الا نذير وبشير لقوم يؤمنون) يقول السامع : هذه عادة وطبيعة البشر حقا ويضيف الى هذا قوله تعالى (انك ميت وانهم ميتون) وعلى ما يعتقد هذا الضال ، ويجزم بعقيدة اليهود والنصارى ، بأن الموت عدم ، ويدخل فى آذان السامعين بأن الموت عدم ، وكل من مات انعدم ، ولا تراه ولا يرانا . هل رأى أحد منكم ميتا بعد موته ؟ يقولون لا . يقول فى حضرته صلى الله تعالى عليه وسلم هو كذلك يقولون نعم فيقول هو ان محمدا قد مات وانتهى كبقية اخوانه الأنبياء والمرسلين وكفّنه أبو بكر ودفنه تحت التراب وانتهت رحلته وتمت مأموريته فيقول السامع لكلامه هذا حق ، فيقول واذا كان محمد خاتم رسل الله قد مات وانتهى ولم يكن بعد يسمع ولا يبصر ولا ينفع ولا يضر وهو سيد المرسلين بنص كلام رب العالمين فيه بأنه بشر وحصل له ما يحصل لغيره من البشر فهل غيره ممن يسمونهم بأهل البيت ومن يسمونهم بالأولياء فيهم فائدة ؟ فلا يسع المسكين الا أن يقول اذا كان الأمر كذلك فلا فائدة ولا نفع . فيقول لهم فاذن حال الزائرين لهم كحال عباد الطواغيت من المشركين .

ثم يستدل على ضلالاته وأباطيله ويقوى دعوته فى هذا الضلال بقوله لهم : ان الله عز وجل يقول (ان الذين تدعون من دون الله عباد أمثالكم فادعوهم فليستجيبوا لكم ان كنتم صادقين) (ان تدعوهم لا يسمعوا دعاءكم ولو سمعوا ما استجابوا لكم ويوم القيامة يكفرون بشرككم ولا ينبئك مثل خبير) وهكذا يسرد جميع الآيات التى جمعها الضالون من قبله ، التى رد الحق سبحانه وتعالى بها على جميع طوائف الكفر والاشراك ممن يعبدون الملائكة والكواكب والجن والأصنام وغيرها من صنوف المعبودات لهم ويجعلونها لزوار الأنبياء والأولياء والصالحين من عباد الله المكرمين . ويزيد فى تضليله لهم بقوله ان الزوار يدعون الأولياء والدعاء مخ العبادة اذ يقول الشيخ حامد الفقى فى تعليقه على شرح الشيخ عبد الرحمن بن حسن آل الشيخ لشرحه رسالة ابن عبد الوهاب التى هى عمدتهم وأصل دعوتهم فى رسالة التوحيد صفحة ١٣٩ الطبعة الخامسة سنة ١٣٦٦ هجرية ما نصه : —

« الصلاة تشمل الفرائض والنوافل والصلوات كلها عبادة وقد اشتملت على نوعى الدعاء : دعاء المسألة ودعاء العبادة فما كان فيها من السؤال والطلب فهو دعاء مسألة وما كان فيها من الحمد والثناء والتسبيح والركوع والسجود وغير ذلك من الأركان والواجبات فهو دعاء عباده . وهذا هو التحقيق فى تسميتها صلاة ، لأنها اشتملت على نوعى الدعاء الذى هو صلاة لغة وشرعا ». اهـ .

أنظر الى هذا الخالط المغشى على القارئين والسامعين بأن الدعاء مطلقا عبادة اذ على كلامه لو دعا زيد عمرا لعبده من دون الله أو لو طلب شخص من شخص شيئا لكان مشركا له بالله إذ الطلب من المخلوق الذى وجّه الله عباده اليه يكون شركا . وهكذا فى جميع كتبهم وكتاباتهم على

ما بيناه وسيتضح لك حالهم . ولا يخفى عليك حاله من الامعان فى الطغيان بهيمنته على البسطاء المضللين ويقول لهم : ها هو الله تعالى يقول (ادعونى أستجب لكم) فهو جل وعلا لا يحتاج الى واسطة ويؤكد لهم بقوله تعالى (واذا سألك عبادى عنى فانى قريب أجيب دعوة الداعى اذا دعان) ويستشهد لهم بقول الصادق المصدوق صلى الله تعالى عليه وسلم ويقول ها هو رسول الله يقول لابن عمه عبد الله ابن عباس رضى الله تعالى عنهما « اذا سألت فاسأل الله ، واذا استعنت فاستعن بالله » الحديث . وهكذا يموه على ضعفاء الايمان ويضللهم فى فهم معانى الآيات والأحاديث وهو لا يعقل لمعناها الحقيقى شيئا على ما سنبينه اذ بتوفيقه تعالى قد عقدت لكل شبهة من شبههم التى ضلوا بها وفيها من وحى الشيطان لهم وانحرافهم عن الجادة فصلا خاصا سيأتى قريبا ان شاء الله تعالى ، قضيت فيه على أباطيلهم الكاسدة وأضاليلهم الفاسدة ومحوتها برعاية الله تعالى حتى لم يبق فيها لمسترشد شبهة ولا لمتخيل أثر .

ولكن لما كان هدفهم الأول الذى يقصدونه هو سيد العالمين صلى الله تعالى عليه وسلم من أن الله تعالى بين لعباده أنه بشر وعليه تجرى جميع العوامل البشرية حتى يقتدى به فى جميع أحواله الدنيوية وهم يقصدون الحط به الى مستوى أى فرد من أفراد البشر . ومتى تم لهم ما أرادوا عند السامعين لهم ينفون كل مزية عن أى عبد من عباد الله الصالحين لأنه مهما رقى فى الخير لا يصل الى حد قدر سيد العالمين .

وهنا نريد مناقشته فى فهمه الذى ضل به وفيه هو ومن قبله من أسلافه الضالين فى معرفة بشرية سيد العالمين من أنه كالبشر العاديين وبها لا يسعه الا أن يكون مع أهل الحق المبين ان كان الله تعالى مريدا له

ذلك والا فقل (ومن يضلل الله فلا هادى له) بل يزيده فيما يهوى من الضلال فى هذه الحياة (قل من كان فى الضلالة فليمدد له الرحمن مدا)

تقول لذلك الضال وأمثاله الذين يجهلون معنى البشرية فى الآية التى يستدلون بها على أنه صلى الله تعالى عليه وسلم بشر مثله من كل الوجوه التى يضلل بها وقد أسلفناها قريبا لأنه لم يذكر للمضللين الذين يستمعون قوله باقى الآية وهى قوله تعالى (يوحى الىّ) لأنه لو أكملها لقطعت عليه استدلاله وكسفته وان كان لا ينكسف اذ باقى الآية يعطى مغايرة البشرية لأنه لا يوحى لكل البشر . واذا كان لا يوحى اليه ! فكيف يكون بشرا مثله من كل الوجوه فهؤلاء أهل الضلال وأمثالهم يأتون بالكلمة من الآية أو من الحديث ليضلوا بها ولا يأتون بباقيها لئلا تعكر عليهم وتقطع عليهم الأباطيل فحالهم كحال من يقول (لا تقربوا الصلاة) ويقف عليها ، ولم يذكر (وأنتم سكارى) اذ صادفنى أحدهم وهو خارج من باب الأزهر قائلا لى هل أنت راض عنى الآن ؟ قلت سررت لقولك سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم فقال « أمّال كنت أقول ايه ؟ فقلت له كنت تقول محمد بن عبد الله !! فقال لى : أمال هو ابن من ؟؟ فقلت نعم هو ابن عبد الله صلى الله تعالى عليه وسلم ولكن الحق عز وجـــل لم يذكر اسمه فى كتابه العزيز مجردا عن التعظيم قط . فقال : ها هو الله يقول (ما كان محمد أبا أحد من رجالكم) وسكت فقلت له كمل الآية ؟ (ولكن رسول الله) فسكت متعجبا . وكقولهم فى الاستشهاد بأن حضرته صلى الله تعالى عليه وسلم لا يعرف أمته من بعده بحديث الحوض ؟ طعنا فى حديث « حياتى خير لكم ومماتى خير لكم » ويحذفون باقى الحديث الطويل المروى عند البخارى وغيره فى كتاب الجنائز وهو قوله صلى الله تعالى عليه وسلم « وانى والله ما أخاف عليكم أن تشركوا

بعدى » الحديث لا يأتون بباقيه لأنه يعكر عليهم نسبة الشرك للزائرين للأوليـــاء ؟

وكاستدلالهم على أن موت البشرى عدم لا حياة فيه (انك ميت وانهم ميتون) (فانك لا تسمع الموتى) ويقتصرون على ذلك تضليلا منهم للمساكين المضللين السامعين لقوله الفاسد ، ولم يكمل لهم الآيات وهى (ولا تسمع الصم الدعاء اذا ولوا مدبرين وما أنت بهاد العمى عن ضلالتهم ان تسمع الا من يؤمن بآياتنا فهم مسلمون) لأنها تقطع عليهم حجتهم وتصفر وجههم وتكسوه خزيا وسخرية ، اذ أن قيام الموتى من القبور واتباعهم لحضرته مستحيل . فكذلك كل من ختم الله على قلبه وسمعه وجعل على بصره غشاوة فحالهم كحال الموتى المستحيل رجوعهم للدنيا ثانية وذلك تسلية لحضرته صلى الله تعالى عليه وسلم وراحة لباله .

ومن أسخف الأدلة لهم على أن موت البشرى عدم لحياته بعــد موته ، قولهم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « اذا مات ابن آدم انقطع عمله الا من ثلاث » الحديث . أقول : الله يقطع رقبته ليريح العالم من تضليله ؟ أين هذا من ذاك ؟ ما الحديث الشريف الا لبيان الحث على الاستزادة من الأعمال الصالحة ليتسع ميراثه فى الجنة قبل أن يموت ويخرج من الدنيا لأنه اذا مات انقطع عمله الذى يرث به فى الجنـــة ولا يستزيد ميراثه بعد موته الا من ثلاث . ورسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم يلفت نظر الأمة بالبيان المأمور به لقول الله تعالى المكرر فى عدة آيات التى منها (وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون وستردون الى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون) وقوله تعالى (ان الذين آمنوا وعملوا الصالحات) وكم من آية من هـــذا القبيل للحث على العمل الصالح وخاصة الآية الجامعة (فمن يعمل مثقال

ذرة خيرا يره ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره) فأين الاستدلال بهـذا الحديث ؟ وأين ما يؤخذ منه ؟ على ان الموت عدم ؟ اللهم ان كان فى قلوبهم وأبصارهم وبصائرهم ، وما غرضهم بذلك كله الا أن يتوصلوا به الى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم مات . والموت فى نظرهم بصريح فهمهم الخاطىء الضال المنحرف عن الحق البين الواضح عدم محض ويقول لهم هذا رسول الله أفضل رسل الله خاتم الأنبياء والمرسلين قد حصل له ذلك فكيف بغيره من الأنبياء والأولياء والصالحين ؟ فاذن صح قوله تعالى (ان تدعوهم لا يسمعوا دعاءكم ولو سمعوا ما استجابوا لكم ويوم القيامة يكفرون بشرككم) هكذا يقول الضال والمضللون قاتلهم الله أنى يؤفكون . راجع تعليق الشيخ حامد الفقى على رسالة ابن عبد الوهاب المسماة بفتح المجيد من صفحة ٢٢ الى آخر الرسـالة لا تجد تعليقه الا خاصا بنسبة الشرك والاشراك والوثنية وعبـادة الأصنام للزائرين للأنبياء والأولياء والصالحين يجعلهم الزيارة عبادة .

ومن مبالغاتهم فى الاستدلال على أن الموت عدم ولا حياة فيه ، ولا يحس صاحبه ، ولا يشعر بشىء ، ولا يسمع شيئا . قولهم : قال الله تعالى (فانك لا تسمع الموتى) ويكتمون باقى الآية وهو قوله تعالى (ولا تسمع الصم الدعاء اذا ولوا مدبرين وما أنت بهاد العمى عن ضلالتهم ان تسمع الا من يؤمن بآياتنا فهم مسلمون) اذ باقى الآية يخرج فهمهم عما فهموه ويخطئهم فيما يعتقدونه . ويأتون أيضا ببعض آية يؤكدون بها ما قرروا من ضلال على صدق ضلالهم فيقولون قال الله تعالى (وما أنت بمسمع من فى القبور) يعنى ذلك الغبى الضال أن أهل القبور لا يسمعون . ويكتم ما ضرب الله تعالى به الأمثال من الفوارق قبل هذه الجملة وهو قوله تعالى (وما يستوى الأعمى والبصـير

ولا الظلمات ولا النور ولا الظل ولا الحرور وما يستوى الأحيـاء ولا الأموات ان الله يسمع من يشاء وما أنت بمسمع من فى القبور ان أنت الا نذير) . وهكذا حالهم فى جميع استدلالاتهم لا يأتون منها الا بما يشكك البسطاء من المؤمنين فى عقائدهم فى كلام رب العالمين .

وكذا فى الأثر المشـهور ، واستلالهم ببغضه وهو المروى عن الدارقطنى وأبى الحسن القطان والحاكم والبيهقى عن أبى سعيد الخدرى قال : حججنا مع عمر رضى الله تعالى عنه فلما دخل الطواف استقبل الحجر فقال : انى أعلم أنك حجر لا تضر ولا تنفع ولولا أنى رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم قبّلك ما قبلتك ثم قبله . فتراهم يقتصرون فى استدلالهم بهذا الأثر الى هنا ويقولون ها هو عمر الفاروق ينكر تقبيل الحجر ويكذبون باقيه تضليلا منهم لسامعيهم وها هو باقيه لما قال ذلك رضى الله عنه « قال له علىّ كرم الله تعالى وجهه لا يا أمير المؤمنين انه يضر وينفع قال : بم ؟ قال بكتاب الله عز وجل . قال وأين ذلك من كتاب الله تعالى ؟ قال قال الله تعالى (واذ أخذ ربك) الآية الى قوله سبحانه بلى وذلك أن الله عز شأنه خلق آدم عليه السلام ومسح على ظهره فأخرج ذريته فقررهم بأنه الرب وأنهم العبيد وأخذ عهودهم ومواثيقهم وكتب ذلك فى رق وكان لهذا الحجر عينان ولسان فقال له افتح فاك ففتح فاه فألقمه ذلك الرق فقال اشهد لمن وافاك بالموافاة يوم القيامة . وانى أشهد لسمعت رسول الله صلى الله تعالى عليه وسـلم يقول « يؤتى يوم القيامة بالحجر الأسود وله لسان زلق ليشهد لمن يستلمه بالتوحيد » فهو يا أمير المؤمنين يضر وينفع . فقال عمر رضى الله تعالى عنه : أعوذ بالله تعالى أن أعيش فى قوم لست فيهم يا أبا الحسن . اهـ .

فتراهم لا يأخذون من الآيات ولا من الأحاديث ولا الآثار الا ما يعينهم

على السير فى الضلال . وكذا فى جميع ملحقات ومستلزمات البشر مما جاء فى الاقتداء بحضرته صلى الله تعالى عليه وسلم فى جميع أوصاف البشر والعوارض اللازمة لكل فرد من أفراد البشر التى تتساوى فيها البشرية ، وما هى الا خاصة للاقتداء بحضرته صلى الله تعالى عليه وسلم من الآيات التى يسوقونها استدلالا منهم على التساوى فى البشرية وهم لا يعنون بها ولا يسوقونها الا تضليلا منهم على أن حضرته صلى الله تعالى عليه وسلم متساو فى البشرية من كل الوجوه من عدم معرفة الغيب ، ودفع الضر ، وجلب النفع ، وغيرها من الآيات التى من شأنها أن تكون خاصة للبشر ولا تكون لهم الا كذلك لبيان حالهم وعدم مقدرتهم على شىء مما اختص به الحق سبحانه وتعالى ولا يكون البشر الا كذلك وهم يجعلون فيها البشرية متساوية من كل الوجوه ويجهلون بل يضلون فى فهم بشريته صلى الله تعالى عليه وسلم التى ما هى الا الاقتداء البشرى بحضرته صلى الله تعالى عليه وسلم .

وكل ذلك قد ذكرناه فى محله لمناسباته وما جئنا بشىء منه هنا الا لمناسبة قولهم انه صلى الله تعالى عليه وسلم بشر كالبشر من كل الوجوه يتوصلوا بها مع مستلزماتها أنه مات وانتهى والتعلق به وبزيارته وبزيارة كل من يزار بعد الموت شرك واشراك على أن الموت فى جميع آى القرآن الكريم هو ارتقاء فى الحياة على ما قررناه فى محله . وذكرنا لشىء منه هنا اقطع ألسنتهم فى أن البشرية اذا ماتت انعدمت ولا حياة فيها ولا احساس ولا شعور ولا علاقة لها بأهل الدنيا ولا تعلم عنهم شيئا وما هى الا عقيدة الكافرين كما أخبر عنهم رب العالمين .

اعلم وفقنى الله واياك ان الحق عز وجل ذكر لنا فى كتابه العزيز أن الموت والحياة وصفان يقومان بالموصوف وانهما معنيان وقد قدمنا لك

أنه سبحانه وتعالى خالق المعانى والصور وجعل لكل معنى صورة تغاير الأخرى فالموت فى الحيوان معنى وصورته عدم الحركة والحياة معنى وصورته الحركة والحياة فى النبات الاخضرار والموت اليبوسة والحياة فى الجماد تماسك الأجزاء والموت فيه تفرق الأجزاء .

ولما كان ابن آدم هو مقصود الحق عز وجل من هذه الموجودات جعل حياته مغايرة لكل أنواع الموجودات وموته كذلك . وقد أخبر سبحانه وتعالى فى جميع آى كتابه العزيز بأن موته ترق له فى الحياة أرقى من حياة الدنيا ورغبة فيه قال تعالى (وان الدار الآخرة لهى الحيوان لو كانوا يعلمون) (وللآخرة أكبر درجات وأكبر تفضيلا) (من عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون) هذه الآيات عامة فى حياة كل من ينتقل من الدنيا الى الآخرة ، فيكون فيها أحيا من حياة الدنيا من مؤمن وكافر ، وان هذه الحياة يتنعم بها ويسعد فيها المؤمن ويعذب ويشقى فيها الكافر ، بمدارك أرقى وأوسع من حياة الدنيا ، وذلك من وقت خروج أرواحهم فى الدنيا الى الآخرة يشعرون بذلك قال تعالى فى حق الكافرين (الذين تتوفاهم الملائكة ظالمى أنفسهم فألقوا السلم ما كنا نعمل من سوء بلى ان الله عليم بما كنتم تعملون فادخلوا أبواب جهنم خالدين فيها فلبئس مثوى المتكبرين) وليس دخولهم فى جهنم بالفعل وأجسامهم فى الدنيا بلى انما تفتح لهم أبواب من جهنم ينظرون اليها غدوا وعشيا ، كما بينته السنة . وكذا أيضا فى حال المؤمنين قال تعالى (الذين تتوفاهم الملائكة طيبين يقولون سلام عليكم ادخلوا الجنة بما كنتم تعملون) فانهم تفتح لهم أيضا أبواب الجنة ينعمون بها الى يوم القيامة فيدخل كل مأواه كما هو بيان السنة المطهرة اذ روى أصحاب السنن والمسانيد عنه

صلى الله تعالى عليه وسلم أنه قال « اذا مات أحدكم فانه يعرض عليه مقعده بالغداة والعشى فان كان من أهل الجنة فمن أهل الجنة وان كان من أهل النار فمن أهل النار » الحديث . وهذا ما دامت الدنيا اذ قال تعالى عن حال أهل القبور فيها (ومن ورائهم برزخ الى يوم يبعثون) أى لا يدخلونها بالفعل الا فى الآخرة .

ومن هذه الآية أيضا فهم الضال أن المراد بحياة القبور حياة برزخية ، وهو لا يعقل لها معنى ، اذ معنى حياة برزخية أى محجوبة عن حياة الآخرة وحياة الدنيا اذ معنى البرزخ الحجاب الحائل قال تعالى (بينهما برزخ لا يبغيان) لأنه لا غرض له الا التضليل بعباد الله عما عليه اجماع عقلاء الأمة والخروج بهم عن الصراط المستقيم ، اذ لا يعقل من الكتاب والسنة أن الموت عدم مع أنهما صريحان فى أن الميت يشعر بعد مفارقته للدنيا بالعذاب أو النعيم ، وأنت تعرف أنه لا يشعر بالعذاب أو النعيم الا الحى .

وتراه فى تضليلاته يقول لأتباعه المساكين انما الحياة التى هى فى القرآن ما هى الا خاصة بالآخرة أى بعد القيام من القبور فقل له ألم تقرأ قول الله تعالى (ولو ترى اذ الظالمون فى غمرات الموت والملائكة باسطوا أيديهم أخرجوا أنفسكم اليوم تجزون عذاب الهون بما كنتم تقولون على الله غير الحق وكنتم عن آياته تستكبرون) أفهل ما يلحق الظالم نفسه بمقتضى صريح القرآن من العذاب من وقت مفارقته للدنيا أهو يشعر به أو لا يشعر ؟ يا أيها المضلل القائل انهم لا يحسون ولا يسمعون حتى تستشهد على ضلالاتك هذه بقول الله تعالى فى الأصنام على الأحياء ولو كفارا الذين هم أشد حياة منك بصريح القرآن الكريم الذى قدمناه لك . وتقول لهم قال الله تعالى(ان تدعوهم لا يسمعوا دعاءكم ولو سمعوا

ما استجابوا لكم) وتتعمق فى التمويه وتهيمن بالتضليل بقولك لهم قال الله تعالى (وما أنت بمسمع من فى القبور) فيا أيها الوغد ألم تقرأ قوله تعالى (وان من شيء الا يسبح بحمده) والميت فى نظرك شيء أم ليس بشيء ؟ وفى الحديث المشهور المروى عند أصحاب الصحاح عنه صلى الله تعالى عليه وسلم « لا يسمع مدى صوت المؤذن جن ولا انس ولا شجر ولا حجر ولا مدر ولا شيء الا ويشهد له به يوم القيامة » وهل الميت شيء أم ليس بشيء ؟ وهل الشهادة تعقل وتقبل من حى أم من ميت عن الادراك ؟

أو لم يمر عليك الحديث الذى قد رواه الخطيب وابن عساكر عن أبى هريرة رضى الله تعالى عنه أن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم قال « ما من عبد يمر بقبر رجل كان يعرفه فى الدنيا فيسلم عليه الا عرفه وردّ عليه السلام » أو ماذا تصنع فى قول رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم لأهل القليب قليب بدر « هل وجدتم ما وعد ربكم حقا ؟ » فقال عمر رضى الله عنه يا رسول الله أتناجى موتى ؟ فقال : ما أنت بأسمع منهم ولكن لا يجيبون » وتعرف أنهم كانوا كفارا أجمعين . وأنت دائما تقرر وتقر بقول رسول الله صلى الله عليه وسلم لزيارة أهل البقيع وقد تعلمت هذه الجملة وتعلمها الناس وتقول لهم هذا هو الوارد فقط وهو قوله الشريف صلى الله تعالى عليه وسلم « السلام عليكم دار قوم مؤمنين » الحديث . وهل رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم يسلم على من لا يحس ولا يسمع ولا يشعر ؟ أو يعلّم الأمة السلام على من لا يجيب ؟ ويطمئن خاطرهم بباقى الحديث فلقد وفيناه فى محله فراجعه وما جئنا بشيء هنا الا للرد على البشرية التى قال فيها تموت وتنعدم ولا تحس ولا تشعر . واليك ما قاله الامام على كرم الله وجهه وقد ذهب الى زيارة

القبور وعن يمينه الحسن رضى الله عنه ، فلما وصل الى الموتى فى قبورهم قال : السلام عليكم دار قوم مؤمنين ، أما أموالكم فقد قسّمت ، وأما نساؤكم فقد نكحت ، وأما دياركم فقد أسكنت ، هذا خبر ما عندنا فما خبر ما عندكم ؟ ثم التفت الى الحسن وقال : والله لو كشفت الحُبسة عن ألسنتهم لقالوا كلحت الوجوه النواضر ، وخويت الأجساد النواعم ، وتقطعت الألسنة فى الأفواه بعد ذلاقتها ، وخمدت القلوب فى الصدور بعد يقظتها ، وعاث فى كل جارحة حديد بلا ، فسمجها وسهل طرق الفساد اليها .

الرجوع إلى الحق

لعلك يا أيها القارىء الكريم لم تنس أنا قد ذكرنا فى ردنا عليهم فى معرفتهم الخاطئة الضالة لله عز وجل من قولهم ان الله تعالى فى السماء وعلى العرش ويتحرك وينزل ويطلع واثبات الجوارح له تعالى عما يقول الظالمون علوا كبيرا . وبينا لك هناك أن مبدأ الضلال والكفر والشرك واحد ، وبينا أنهم حزب الشيطان المقابل لحزب الرحمن ، وأنهم هم أهل الضلال المقابل للحق وأهله ، وأنهم أهل الشر المقابل للخير ، وبينا أنهم على أثر ابليس اللعين المؤسس لذلك كله ، وهم جنوده الداعون بتلك المبادىء التى كانوا يعارضون بها الأنبياء والمرسلين وأن أولهم فى الدعوة كآخرهم فيها ، وأنهم لا يحيدون عنها ، وقد جئناك هناك بأقطع الأدلة أن ابن تيمية الجامع لهم هذه الضلالات من كتب المخالفين للحق وأهله بما استشهد لهم على أن الله فى السماء بما حكى لنا الحق عز وجل عن عقيدة فرعون فقال (يا هامان ابن لى صرحا) الآية . وكذا جرى عليه من بعده الى أن جئناك بكتابات الشيخ حامد الحاضر الآن على هذا المبدأ فى معرفته لخالقه الذى يعبده .

وهو يقول فى معرفته لسيد العالمين فى تعليقه بل شرحه على شرح رسالة ابن عبد الوهاب التى أخذها من كتب سابقيه وهم لا يعقلون لما فيها من آيات وأحاديث معنى ، اللهم الا معانى الضلالات المخرجة عن الجادة والطريق المستقيم وهو دأبهم ، قال فى الطبعة الخامسة صفحة٢١٩

فان كثيرا ممن ينتسب الى الاسلام يطرى النبى غاية الاطراء فيعتقد فيه أنه أول نور انبثق من الله وأنه أول خلق الله ، وأن لأجله خلق الله كل شيء وأن هذا النور انتقل منه الى أولاده وذريته وأنه يعلم الغيب وأنه لايخفى عليه شيء فى الأرض ولا فى السماء وقد نفى الله عنه ذلك فى القرآن فقال : (قل انما أنا بشر مثلكم) (قل لا أملك لنفسى ضرا ولا نفعا الا ما شاء الله ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير وما مسنى السوء) (قل لا أقول لكم عندى خزائن الله ولا أعلم الغيب) (قل ما كنت بدعا من الرسل وما أدرى ما يفعل بى ولا بكم) فكفروا به ، واعتقدوا ما أوحته اليهم الشياطين ، مثل ما أوحت الى النصارى والوثنيين من قبلهم . وكثير منهم يعتقدون أنه يتصرف فى الدنيا بعد موته ويزور من شاء فى المشارق والمغارب . اهـ .

أنظر يا أخى الى الخلط والتحريف فى كتاب الله عز وجل وقد قدمنا قريبا الرد على هذا الذى هو برهان جهلهم . وان كانوا يعلمون ويكتمون فحسبهم قوله تعالى (ان الذين يكتمون ما أنزلنا من البينات والهدى من بعد ما بيناه للناس فى الكتاب أولئك يلعنهم الله ويلعنهم اللاعنون) فتراهم يسردون الآيات المتباينات المعانى المختلفات فى أسباب النزول مع عموم لفظها ويجعلونها فى معنى واحد بدون تعقل ولا ادراك لمعانيها ، ولا لما سيقت لأجله من المناسبات . وها هو البرهان الواضح الذى ذكره لقرائه

ومستمعيه فضيلة الشيخ الهمام حامد الفقى رئيس أنصار السنة بالديار المصرية فى تعليقه على شرح رسالة الهمام مثله ابن عبد الوهاب فى خامس طبعة له ، واستفتاحه الاستدلال بالتوهين من قدر سيد العالمين ، وأنه بشر مثله ، بدون أن يتعقل بأن الآيات التى يستشهد بها على ما يعتقد كأسلافه من سرد الآيات بدون تعقل فيما قدمنا لهم ، فترى هذا استفتح دليله الذى هو فى الواقع عليه لا له ، بجزء من آية سورة يونس عليه السلام وهى قوله تعالى (قل لا أملك لنفسى ضرا ولا نفعا الا ما شاء الله لكل أمة أجل) وأكمل دليله بآية سورة الأعراف وهى قوله تعالى : — (ولو كنت أعلم الغيب) الآية وجعلهما آية واحدة وقد جهل الفرق بين الآيتين ، والغرض المسوق اليه كل منهما وجعلها آية واحدة ، وما ذاك الا جهل بالقرآن وعدم تعقل الأوضاع الالهية فى الكتاب العزيز . اذ تقديم الضر على النفع لا يتناسب الا مع باقى الآية فى سورة يونس ، وفى سورة الأعراف من تقديم النفع على الضر لايكون الا كذلك فلعله قد اتضح لك حالهم وما هم عليه ، وتحقق لك كلامنا بأن أصلهم كفرعهم فى الجهالة وعدم الاهتداء الى الصواب ، وأنهم يوهمون السامع لهم بأنهم يستدلون من القرآن والسنة . وخاصة اذا كانت الآيات ظاهرها اتحاد اللفظ كما قدمنا لك . وما جاء بالآيات الأخر التى هى من مستلزمات البشر وعامة البشرية والرسول المرسل اليهم من هذا الجنس حتى يصح الاقتداء به فى كل ذلك ، ولكنهم هم يجرونها على حضرته صلى الله تعالى عليه وسلم لا لأنها للاقتداء به ، بل يعنون عدم نفعه مطلقا وخاصة بعد الموت لعلمهم بأن الموت عدم ولا نفع ولا انتفاع معه ، فقل لهم وله هنا كما قلنا له ولهم فيما سبق فى معرفة الحق جل وعلا : ما الفرق بينكم وبين من عارضوا أول رسول عورض فى الرسالة وهو نوح عليه السلام فى

قولهم (ماهذا الا بشر مثلكم يأكل مما تأكلون منه ويشرب مما تشربون ولئن أطعتم بشرا مثلكم انكم اذاً لخاسرون) ؟ وها هو العلامة القرطبى كأنه يرد عليهم وعلى أسلافهم الملحدين الذين لا قصد لهم تذكر هذه الآيات الا الحط والتوهين من قدر سيد العالمين فقال رحمه الله تعالى جزء ٦ ص ٣٩٤ على قوله جل ذكره (وقالوا لولا أنزل عليه ملك ولو أنزلنا ملكا لقضى الأمر ثم لاينظرون ولو جعلناه ملكا لجعلناه رجلا وللبسنا عليهم ما يلبسون) أى لبسنا على رؤسائهم كما يلبسون على ضعفتهم وكانوا يقولون لهم انما محمد بشر وليس بينكم وبينه فرق فيلبسون عليهم ويشككونهم . انتهى منه .

اذن ألستم على هذا المبدأ الذى سبقكم به وفيه كل ضال الى أن توصلتم بتلك السلسلة النجسة الخبيثة الى من كان فى زمنه صلى الله تعالى عليه وسلم وهم وبهم الى من قبلكم من معارضى الرسل صلوات الله تعالى وسلامه عليهم أجمعين وهم فى كل ذلك يتأسون بابليس اللعين ؟ قل لهم بربك هل هناك فرق بينكم أم أنتم من اخوانه فى الدعوة والطريقة ؟ (فماذا بعد الحق الا الضلال فأنّى تصرفون) .

واعلم أيها القارىء الكريم أنه ليس هناك لهم غاية من هذا الا الحط من قدر سيد العالمين وبعد أن يبين بضلالاته تلك للمضللين ويعتقدونها وينفى كل مميز لسيد العالمين ويثبت له التساوى فى البشرية فيصبح الجزم بها على غيره من عباد الله الصالحين بطريق الأولى . فقل له هات الدليل العقلى والنقلى كما قلنا لهم آنفا من هو ؟ فى جميع من سمى الله تعالى فى كتابه العزيز من جميع مكوناته عبدا كما قال تعالى (ان كل من فى السموات والأرض الا آت الرحمن عبدا) أفضل منه صلى الله تعالى عليه وسلم لنعرف أنه ليس فوقه فى الفضل الا الذى فضله جلت

عظمته فيكون هذا الأفضل هو أول العبودية ، اذ العبودية حادثة ، ولابد لها من محدث تؤمن به . وحقيقته أولى الحقائق الكونية للموجودات .

وأما انكاره للنور والطعن فيمن قال به فقل له : متى أخذ ربك العهد على بنى آدم الثابت بالكتاب والسنة ؟ هل كان فى وقت النور أو فى وقت الظلمة ؟ وهل كان فى الحس أو فى الخيال ؟ فاذا عرفت أن ربك أخذ على حقيقتك العهد وقد نسيته الآن ، فاعرف أن الحقيقة التى خلقت منها وبها وأخذ عليك العهد فيها ومنها خلقت تلك الحقيقة الخاصة بك منها فتكون هى أفضل وأصلا لجميع الحقائق فانظر من هو أفضل خلق الله تعالى فى الظاهر الذى عرفناه بالدلائل حتى تتوصل الى أفضلية الحقائق التى يرجع اليها فمن يقول من أهل الحق والتحقيق بأول خلق الله بهذا الاعتبار ومن قال به فقد عرف كل شىء بالخصائص والمزايا التى جعلها الله فى عباده على ما بينه فى كتابه العزيز اذ لا يعقل أن يكون أفضل خلق الله ويدانيه أحد منهم فى كل شىء حتى فى أصل الوجود والتكوين كما هو مفاد الكتاب العزيز الذى جعله تعالى (تبيانا لكل شىء) (وتفصيل كل شىء) (ما فرطنا فى الكتاب من شىء) والسنة المطهرة على ما قدمنا عنه صلى الله تعالى عليه وسلم « ألا وانى أعطيت القرآن وعشرة أمثاله » الحديث . يعنى من البيان والتبيين اللذين ألزمهما الحق تبارك وتعالى لحضرته للناس وأمر عباده سبحانه وتعالى أن يأخذوا بجميع أقواله ، وأفعاله واقراره لعمل الصحابة رضى الله عنهم فى قوله تعالى (وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا) الآية . وذلك فى جميع ما جاء فى الدين الحنيف من التشريعات الالهية على يد خير البرية صلى الله تعالى عليه وسلم كبيان أحكام الوضوء ، والصلاة من كونها رباعية وثلاثية وثنائية ، وتقبيل الحجر الأسود والركن اليمانى

وتفصيل أحكام الحج والزكاة وغيرها كثير مما لا يكاد ينحصر كما جاء فى الحديث المروى عند أبى داود عن المقدام بن معدى كرب أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « ألا انى أوتيت الكتاب ومثله معه ألا يوشك رجل شبعان على أريكته يقول عليكم بهذا القرآن فما وجدتم فيه من حلال فأحلوه وما وجدتم فيه من حرام فحرموه ، ألا لا يحل لكم الحمار الأهلى ولا كل ذى ناب من السباع ولا لقطة معاهد الا أن يستغنى عنها صاحبها ، ومن نزل بقوم فعليهم أن يقروه فان لم يقروه فله أن يعقبهم بمثل قراه » فمن قوله الشريف ألا لا يحل لكم الى آخر الحديث مما أوتيه صلى الله تعالى عليه وسلم من البيان الشريف أزيد مما فى القرآن .

بعض ما قيل فى سيد العالمين صلى الله تعالى عليه وسلم

من أقوال المعارضين ورد أفاضل الأمة عليهم

قال الله تعالى وهو أصدق القائلين (تلك الرسل فضلنا بعضهم على بعض منهم من كلم الله ورفع بعضهم درجات وآتينا عيسى بن مريم البينات وأيدناه بروح القدس) الآية .

قال أفاضل الأمة فى الآية أقوال : — الأول : أن المراد من تقدم ذكرهم من الأنبياء عليهم السلام فى القرآن كابراهيم واسمعيل واسحق ويعقوب وموسى وغيرهم صلوات الله وسلامه عليهم .

الثانى : — ان المراد من تقدم ذكرهم فى هذه الآية كأشمويل وداود وطالوت على قول من يجعله نبيا .

الثالث : — وهو قول الأصم تلك الرسل الذين أرسلهم الله لدفع الفساد الذين اليهم الاشارة بقوله تعالى (ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض) .

وجه تعلق الآية بما قبلها ما ذكره أبو مسلم وهو أنه تعالى أنبأ سيدنا محمدا صلى الله عليه وسلم من أخبار المتقدمين مع قومهم كسؤال قوم موسى له أرنا الله جهرة وقولهم اجعل لنا الها كما لهم آلهة وكقوم عيسى بعد أن شاهدوا منه احياء الموتى وابراء الأكمة والأبرص باذن الله فكذبوه وراموا قتله ثم أقام فريق على الكفر به وهم اليهود وفريق زعموا أنهم أولياؤه وادعت اليهود قتله وصلبه فكذبهم الله تعالى فى ادعائهم حيث قال (وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم) وكذلك ما جرى من أمر النهر ... فَسَلّى الله رسوله عما رأى من قومه من التكذيب والحسد فقال هؤلاء الرسل الذين كلم [1] الله تعالى بعضهم ورفع الباقين [2] درجات وأيد عيسى [3] بروح القدس قد نالهم من قومهم ما ذكرناه بعد مشاهدات المعجزات وأنت رسول مثلهم فلا تحزن على ما ترى من قومك فلو شاء الله لم تختلفوا أنتم وأولئك ولكن ما قضى الله فهو كائن وما قدره فهو واقع . وبالجملة : فالمقصود من هذا القصص تسلية الرسول صلى الله عليه وسلم على ايذاء قومه له .

أجمعت الأمة على أن بعض الأنبياء أفضل من بعض وعلى أن محمدا صلى الله عليه وسلم أفضل من الكل ويدل عليه وجوه :

أحدها : — قوله تعالى (وما أرسلناك الا رحمة للعالمين) فلما كان رحمة لكل العالمين لزم أن يكون أفضل من كل العالمين .

الحجة الثانية : — قوله تعالى (ورفعنا لك ذكرك) فقيل فيه لأنه تعالى قرن ذكر محمد صلى الله تعالى عليه وسلم بذكره تعالى فى كلمة الشهادة وفى الأذان وفى التشهد ولم يكن ذكر سائر الأنبياء كذلك .

الحجة الثالثة : — أنه تعالى قرن طاعته [1] بطاعته فقال (من يطع

الرسول فقد أطاع الله) وبيعته [٢] ببيعته فقال (ان الذين يبايعونك انما يبايعون الله . يد الله فوق أيديهم) وعزته [٣] بعزته فقال (ولله العزة ولرسوله) ورضاه [٤] برضاه فقال (والله ورسوله أحق أن يرضوه) واجابته [٥] باجابته فقال (يا أيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول) .

الحجة الرابعة : — أن الله تعالى أمر محمدا بأن يتحداهم بكل سورة من القرآن فقال (فأتوا بسورة من مثله) وأقصر السور سورة الكوثر هى ثلاث آيات وكان الله تحداهم بكل ثلاث آيات من القرآن ولما كان كل القرآن ستة آلاف آية وكذا آية لزم أن لا يكون معجز القرآن معجزا واحدا بل يكون ألفى معجزة وأزيد . واذا ثبت هذا فنقول : ان الله سبحانه ذكر تشريف موسى بتسع آيات بينات فلأن يحصل التشريف لمحمد بهذه الآيات الكثيرة كان أولى .

الحجة الخامسة : — أن معجزة رسولنا أفضل من معجزات سائر الأنبياء فوجب أن يكون رسولنا أفضل من سائر الأنبياء بيان الأول قوله عليه السلام القرآن فى الكلام كآدم فى الموجودات بيان الثانى أن الخلعة كلما كانت أشرف كان صاحبها أكرم عند الملك .

الحجة السادسة : — أنه معجزته عليه السلام هى القرآن وهى من جنس الحروف والأصوات وهى أعراض غير باقية وسائر معجزات سائر الأنبياء من جنس الأمور الباقية ثم انه سبحانه جعل معجزة محمد صلى الله عليه وسلم باقية الى آخر الدهر ومعجزات سائر الأنبياء فانية منقضية .

الحجة السابعة : — أنه تعالى بعد ما حكى أحوال الأنبياء عليهم السلام قال (أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده) فأمر محمدا صلى الله عليه وسلم بالاقتداء بمن قبله فاما أن يقال انه كان مأمورا بالاقتداء بهم

فى أصول الدين وهو غير جائز لأنه تقليد أوفى فروع الدين وهو غــير جائز لأن شرعه نسخ الشرائع فلم يبق الا أن يكون المراد محاسن الأخلاق فكأنه سبحانه قال انا أطلعناك على أحوالهم وسيرهم فاختر أنت منها أجودها وأحسنها وكن مقتديا بهم فى كلها وهذا يقتضى أنه اجتمع فيه من الخصال المرضية ما كان متفرقا فيهم فوجب أن يكون أفضل منهم .

الحجة الثامنة : — أنه عليه السلام بعث الى كل الخلق وذلك يقتضى أن تكون مشقته أكثر فيجب أن يكون أفضل : — أما انه بعث الى كل الخلق فلقوله تعالى (وما أرسلناك الا كافة للناس بشيرا ونذيرا) : — وأما انه ذلك يقتضى أن تكون مشقته أكثر فلأنه كان انسانا فردا من غير مال ولا أعوان وأنصار فاذا قال لجميع العالمين يا أيها الكافرون صار الكل أعداء له وحينئذ يصير خائفا من الكل فكانت المشقة عظيمة وكذلك فان موسى عليه السلام لما بعث الى بنى اسرائيل فهو ما كان يخاف أحدا الا من فرعون وقومه . وأما محمد عليه السلام فالكل كانوا أعداء له يبين ذلك ان انسانا لو قيل له هذا البلد الخالى عن الصديق والرفيق فيه رجل واحد ذو قوة وسلاح فاذهب اليه اليوم وحيدا وبلغ اليه خبرا يوحشه ويؤذيه فانه قلما سمحت نفسه بذلك مع أنه انسان واحــد ولو قيل له اذهب الى بادية بعيدة ليس فيها أنيس ولا صديق وبلغ الى صاحب البادية كذا وكذا من الأخبار الموحشة لشق ذلك على الانسان . أما النبى صلى الله عليه وسلم فانه كان مأمورا بأن يذهب طول ليله ونهاره فى كل عمره الى الجن والانس الذين لا عهد له بهم بل المعتاد منهم أنهم يعادونه ويؤذونه ويستخفونه ثم انه عليه السلام لم يمل من هذه الحالة ولم يتلكأ بل سارع اليها سامعا مطيعا فهذا يقتضى أنه

تحمل فى اظهار دين الله أعظم المشاق ولهذا قال تعالى (لا يستوى منكم من أنفق من قبل الفتح وقاتل) . ومعلوم أن ذلك البلاء كان على الرسول صلى الله عليه وسلم فاذا عظم فضل الصحابة بسبب تلك الشدة فما ظنك بالرسول واذا ثبت أن مشقته أعظم من مشقة غيره وجب أن يكون فضله أكثر من فضل غيره لقوله عليه السلام « أفضل العبادات أحمزها » .

الحجة التاسعة :— ان دين محمد عليه السلام أفضل الأديان المزعومة فيلزم أن يكون محمد صلى الله عليه وسلم أفضل الأنبياء بيان الأول أنه تعالى جعل الاسلام ناسخا لسائر الأديان والناسخ يجب أن يكون أفضل لقوله عليه السلام « من سن سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها الى يوم القيامة » فلما كان هذا الدين أفضل وأكثر ثوابا كان واضعه أكثر ثوابا من واضعى سائر الأديان المزعومة فيلزم أن يكون محمد أفضل من سائر الأنبياء .

الحجة العاشرة : — أمة محمد صلى الله عليه وسلم أفضل الأمم فوجب أن يكون محمد أفضل الأنبياء بيان الأول قوله تعالى (كنتم خير أمة أخرجت للناس) بيان الثانى أن هذه الأمة نالت هذه الفضيلة لمتابعة محمد صلى الله عليه وسلم قال تعالى (قل ان كنتم تحبون الله فاتبعونى يحببكم الله) وفضيلة التابع توجب فضيلة المتبوع وأيضا ان محمدا صلى الله عليه وسلم أكثر ثوابا لأنه مبعوث الى الجن والانس فوجب أن يكون ثوابه أكثر لأن للكثرة المستجيبين أثرا فى علو شأن المتبوع .

الحجة الحادية عشرة : — أنه عليه السلام خاتم الرسل فوجب أن يكون أفضل لأن نسخ الفاضل بالمفضول قبيح فى المعقول .

الحجة الثانية عشرة : — أن تفضيل بعض الأنبياء على بعض يكون

لأمور منها كثرة المعجزات التى هى دالة على صدقهم وموجبة لتشريفهم وقد حصل فى حق نبينا عليه السلام ما يفضل ثلاثة آلاف وهى بالجملة على أقسام منها ما يتعلق بالقدرة كاشباع الخلق الكثير من الطعام القليل واروائهم من الماء القليل — ومنها ما يتعلق بالعلوم كالاخبار عن الغيوب وفصاحة القرآن ومنها اختصاصه فى ذاته بالفضائل نحو كونه أشرف نسبا من أشراف العرب وأيضا كان فى غاية الشجاعة كما روى أنه قال بعد محاربة على رضى الله عنه لعمرو بن ودّ كيف وجدت نفسك يا على ؟ قال : وجدتها لو كان أهل المدينة فى جانب وأنا فى جانب لقدرت عليهم فقال : تأهب فانه يخرج من هذا الوادى فتى يقاتلك — الحديث الى آخره وهو مشهور — ومنها فى خلقه وحلمه ووفائه وفصاحته وسخائه وكتب الحديث ناطقة بتفصيل هذه الأبواب .

الحجة الثالثة عشرة : — قوله عليه السلام « آدم ومن دونه تحت لوائى يوم القيامة » وذلك يدل على أنه أفضل من آدم ومن كل أولاده وقال عليه السلام « أنا سيد ولد آدم ولا فخر » وقال عليه السلام « لا يدخل الجنة أحد من النبيين حتى أدخلها أنا ولا يدخلها أحد من الأمم حتى تدخلها أمتى » وروى أنس قال صلى الله عليه وسلم « أنا أول الناس خروجا اذا بعثوا ، وأنا خطيبهم اذا وفدوا ، وأنا مبشرهم اذا أيسوا — لواء الحمد بيدى وأنا أكرم ولد آدم على ربى ولا فخر — وعن ابن عباس قال : جلس ناس من الصحابة يتذاكرون فسمع رسول الله صلى الله عليه وسلم حديثهم — فقال بعضهم عجبا ان الله اتخذ ابراهيم خليلا وقال آخر ماذا بأعجب من كلام موسى كلمه تكليما وقال آخر فعيسى كلمة الله وروحه . وقال آخر آدم اصطفاه الله فخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال : قد سمعت كلامكم وحجتكم ان ابراهيم

خليل الله وهو كذلك وموسى نجى الله وهو كذلك وعيسى روح الله وهو كذلك وآدم اصطفاه الله وهو كذلك — ألا وأنا حبيب الله ولا فخر وأنا حامل لواء الحمد يوم القيامة ولا فخر وأنا أول شافع وأنا أول مشفع يوم القيامة ولا فخر وأنا أول من يحرك حلقة الجنة فيفتح لى . فأدخلها ومعى فقراء المؤمنين ولا فخر وأنا أول الأولين والآخرين ولا فخر.

الحجة الرابعة عشرة : — روى البيهقى فى فضائل الصحابة أنه ظهر علىّ بن أبى طالب من بعيد فقال عليه السلام « هذا سيد العرب » فقالت عائشة : ألست أنت سيد العرب ؟ فقال : أنا سيد العالمين وهو سيد العرب : وهذا يدل على أنه أفضل الأنبياء عليهم السلام .

الحجة الخامسة عشرة : — روى مجاهد عن ابن عباس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم أعطيت خمسا لم يعطهن أحد قبلى ولا فخر (١) بعثت الى الأحمر والأسود وكان النبى قبلى يبعث الى قومه (٢) وجعلت لى الأرض مسجدا وطهورا (٣) ونصرت بالرعب أمامى مسيرة شهر (٤) وأحلت لى الغنائم ولم تكن لأحد قبلى (٥) وأعطيت الشفاعة فادخرتها لأمتى فهى نائلة ان شاء الله تعالى لمن لا يشرك بالله شيئا — وجه الاستدلال أنه صريح أن الله تعالى فضله بهذه الفضائل على غيره .

الحجة السادسة عشرة : — قال محمد بن موسى الحكيم الترمذى فى تقرير هذا المعنى : ان كل أمير فانه تكون مؤنته على قدر رعيته فالأمير الذى تكون أمارته على قرية تكون مؤنته بقدر تلك القرية ومن ملك الشرق والغرب احتاج الى أموال وذخائر أكثر من أموال أمير تلك القرية . فكذلك كل رسول بعث الى قومه فأعطى من كنوز التوحيد

وجواهر المعرفة على قدر ما حمل من الرسالة — فالمرسل الى قومه فى طرف مخصوص من الأرض انما يعطى من هذه الكنوز الروحانية بقدر ذلك الموضع والمرسل الى كل أهل الشرق والغرب انسهم وجنهم لابد وأن يعطى من المعرفة بقدر ما يمكنه أن يقوم بسعيه بأمور أهل الشرق والغرب واذا كان كذلك كانت نسبة نبوة محمد صلى الله عليه وسلم الى نبوة سائر الأنبياء كنسبة كل المشارق والمغارب الى ملك بعض البلاد المخصوصة ولما كان كذلك لا جرم أعطى من كنوز الحكمة والعلم مالم يعط أحد قبله فلا جرم بلغ فى العلم الى الحد الذى لم يبلغه أحد من البشر قال تعالى فى حقه (فأوحى الى عبده ما أوحى) وفى الفصاحة الى أن قال : أوتيت جوامع الكلم وصار كتابه مهيمنا على الكتب وصارت أمته خير الأمم .

الحجة السابعة عشرة :— روى محمد بن الحكيم الترمذى رحمه الله فى كتاب النوادر عن أبى هريرة عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال ان الله تعالى اتخذ ابراهيم خليلا وموسى نجيا واتخذنى حبيبا ثم قال وعزتى وجلالى لأوثرن حبيبى على خليلى ونجيى .

الحجة الثامنة عشرة : — فى الصحيحين عن همام بن منبه عن أبى هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « مثلى ومثل الأنبياء من قبلى كمثل رجل بنى بيتا فأحسنها وأجملها وأكملها الا موضع لبنة من زاوية من زواياها فجعل الناس يطوفون به ويعجبهم البنيان فيقولون : ألا وضعت ههنا لبنة فيتم بناؤك فقال محمد كنت أنا تلك اللبنة » .

الحجة التاسعة عشرة : — ان الله تعالى كلما نادى نبيا فى القرآن ناداه باسمه — يا آدم اسكن — وناديناه أن يا ابراهيم يا موسى

انى أنا ربك — وأما النبى عليه السلام فانه ناداه بقوله : يا أيها النبى — يا أيها الرسول وذلك يفيد الفضل ... واحتج المخالف بوجوه :

الأول : أن معجزات الأنبياء كانت أعظم من معجزاته فان آدم عليه السلام كان مسجودا للملائكة وما كان محمد عليه السلام كذلك ، وان ابراهيم عليه السلام ألقى فى النيران العظيمة فانقلبت روحا وريحانا عليه ، وأن موسى عليه السلام أوتى تلك المعجزات العظيمة ، ومحمد ما كان له مثلها ، وداود ألان له الحديد فى يده ، وسليمان كان الجن والانس والطير والوحش والرياح مسخرين له وما كان ذلك حاصلا لمحمد صلى الله عليه وسلم .

الحجة الثانية : — أنه تعالى سمى ابراهيم فى كتابه خليلا وقال فى موسى عليه السلام وكلم الله موسى تكليما وقال فى عيسى عليه السلام ونفخنا فيه من روحنا وشىء من ذلك لم يقله فى حق محمد عليه السلام .

الحجة الثالثة : — قوله عليه السلام « لا تفضلونى على يونس ابن متى » وقال صلى الله عليه وسلم « لا تخيروا بين الأنبياء » .

الحجة الرابعة : — روى عن ابن عباس قال : كنا فى المسجد نتذاكر فضل الأنبياء فذكرنا نوحا بطول عبادته وابراهيم بخلته وموسى بتكليم الله تعالى اياه وعيسى برفعه الى السماء وقلنا رسول الله أفضل منهم — بعث الى الناس كافة وغفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر وهو خاتم الأنبياء فدخل رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : فيم أنتم ؟ فذكرنا له فقال : لا ينبغى لأحد أن يكون خيرا من يحيى بن زكريا وذلك أنه لم يعمل سيئة قط ولم بها .

الجـواب

والجواب أن كون آدم عليه السلام مسجودا للملائكة لا يوجب أن يكون أفضل من محمد عليه السلام بدليل قوله صلى الله عليه وسلم « آدم ومن دونه تحت لوائى يوم القيامة » وقال « كنت نبيا وآدم بين الماء والطين » ونقل أن جبريل عليه السلام أخذ بركاب محمد عليه السلام ليلة المعراج ، وهذا أعظم من السجود وأيضا أنه تعالى صلى بنفسه على محمد وأمر الملائكة والمؤمنين بالصلاة عليه وذلك أفضل من سجود الملائكة ويدل عليه وجوه :

الأول : — أنه تعالى أمر الملائكة بسـجود آدم تأديبا وأمرهم بالصلاة على محمد صلى الله عليه وسلم تقريبا .

الثانى : — أن الصلاة على محمد عليه السلام دائمة الى يوم القيامة وأما سجود الملائكة لآدم عليه السلام ما كان الا مرة واحدة .

الثالث : — ان السجود لآدم انما تولاه الملائكة وأما الصلاة على محمد فانما تولاه رب العالمين ثم أمر بها الملائكة والمؤمنين .

الرابع : — أن الملائكة أمروا بالسجود لآدم لأجل أن نور محمد عليه السلام فى جبهة آدم فان قيل انه تعالى خص آدم بالعلم فقال (وعلم آدم الأسماء كلها) وأما محمد فقال فى حقه (ما كنت تدرى ما الكتاب ولا الايمان) وقال (ووجدك ضالا فهدى) وأيضا : — فمعلم آدم هو الله تعالى قال (وعلم آدم الأسماء) ومعلم محمد عليه السلام جبريل عليـه السلام لقوله (علمه شديد القوى) والجواب أنه تعالى قال فى علم محمد صلى الله عليه وسلم (وعلمك مالم تكن تعلم وكان فضل الله عليك عظيما) وقال عليه السلام (أدبنى ربى فأحسن

تأديبى » وقال تعالى « الرحمن علم القرآن » وكان عليه السلام يقول أرنا الأشـــياء كما هى وقال تعالى لمحمـــد (وقل رب زدنى علما) — وأما الجمع بينه وبين قوله تعالى (علمه شديد القوى) فذاك بحسب التلقين . وأما التعليم فمن الله تعالى كما أنه تعالى قال (قل يتوفاكم ملك الموت) ثم قال تعالى (الله يتوفى الأنفس حين موتها) ... فان قيل قال نوح عليه السلام (وما أنا بطارد الذين آمنوا) وقال الله لمحمد عليه السلام (ولا تطرد الذين يدعون ربهم) وهذا يدل على أن خلق نوح أحسن ... قلنا انه تعالى قال (انا أرسلنا نوحا الى قومه أن أنذر قومك من قبل أن يأتيهم عذاب أليم) فكان أول أمره العذاب ... وأما محمد عليه السلام فقيل فيه (وما أرسلناك الا رحمة للعالمين) (لقد جاءكم رسول من أنفسكم) الى قوله (رءوف رحيم) ... فكان عاقبة نوح أن قال (رب لا تذر على الأرض من الكافرين ديارا) وعاقبة محمد عليه السلام الشفاعة (عسى أن يبعثك ربك مقاما محمودا) وأما سائر المعجزات فقد ذكر فى كتب دلائل النبوة فى مقابلة كل واحد منها معجزة أفضل منها لمحمد صلى الله عليه وسلم وهذا الكتاب لا يحتمل أكثر مما ذكرناه والله أعلم .

وأما قوله تعالى (منهم من كلم الله) ففيه مسائل :

المسألة الأولى : — المراد منه من كلمه الله تعالى والهاء تحذف كثيرا كقوله تعالى (فيها ما تشتهى الأنفس وتلذ الأعين) .

المسألة الثانية : — قرىء كلَّم الله بالنصب والقراءة الأولى أدل على الفضل لأن كل مؤمن فانه يكلم الله على ما قال عليه السلام المصلى

مناج ربه انما الشرف فى أن يكلمه الله تعالى وقرأ اليمانى كالم الله من المكالمة ويدل عليه قولهم كليم الله بمعنى مكالمه .

المسألة الثالثة : — اختلفوا فى أن من كلمه الله فالمسموع هو الكلام القديم الأزلى الذى ليس بحرف ولا صوت ، أم غيره : فقال الأشعرى وأتباعه المسموع هو ذلك فانه لما لم يمتنع رؤية ما ليس بمكيف فكذا لا يستبعد سماع ما ليس بمكيف — وقال الماتريدى : سماع ذلك الكلام محال وانما المسموع هو الحرف والصوت .

المسألة الرابعة : — اتفقوا على أن موسى عليه السلام مراد بقوله فمنهم من كلم الله قالوا وقد سمع من قوم موسى السبعين المختارين وهم الذين أرادهم الله بقوله (واختار موسى قومه سبعين رجلا) وهل سمعه محمد صلى الله عليه وسلم ليلة المعراج ... اختلفوا فيه منهم من قال نعم بدليل قوله (فأوحى الى عبده ما أوحى) فان قيل ان قوله تعالى (منهم من كلم الله) المقصود منه بيان غاية منقبة أولئك الأنبياء الذين كلم الله تعالى ، ولهذا السبب لما بالغ فى تعظيم موسى عليه السلام قال وكلم الله موسى تكليما ثم جاء فى القرآن مكالمة بين الله وبين ابليس حيث قال (أنظرنى الى يوم يبعثون) قال فانك من المنظرين الى يوم الوقت المعلوم الى آخر هذه الآيات وظاهر هذه الآيات يدل على مكالمة كثيرة بين الله وبين ابليس فان كان ذلك يوجب غاية الشرف فكيف حصل لابليس الذم وان لم يوجب شرفا ؟ فكيف ذكره فى معرض التشريف لموسى عليه السلام حيث قال (وكلم الله موسى تكليما) ...

والجواب : ان قصة ابليس ليس فيها ما يدل على أنه تعالى قال تلك الأجوبة معه من غير واسطة فلعل الواسطة كانت موجودة ...

أما قوله تعالى (ورفع بعضهم درجات) ففيه قولان :

الأول : — أن المراد منه بيان أن مراتب الرسل متفاوتة وذلك لأنه تعالى اتخذ ابراهيم خليلا ولم يؤت أحدا مثله هذه الفضيلة وجمع لداود الملك والنبوة ولم يحصل هذا لغيره وسخر لسليمان الانس والجن والطير والريح ولم يكن هذا حاصلا لأبيه داود عليه السلام ومحمد عليه السلام مخصوص بأنه مبعوث الى الجن والانس وبأن شرعه ناسخ لكل الشرائع ... وهذا ان حملنا الدرجات على المناصب والمراتب أما اذا حملناها على المعجزات ففيه أيضا وجه لأن كل واحد من الأنبياء أوتي نوعا آخر من المعجزة لائقا بزمانه فمعجزات موسى عليه السلام وهى قلب العصا واليد البيضاء وفلق البحر كان كالشبيه بما كان أهل ذلك العصر متقدمين فيه وهو السحر ومعجزات عيسى عليه السلام وهى ابراء الأكمه والأبرص واحياء الموتى كانت كالشبيه بما كان أهل ذلك العصر متقدمين فيه وهو الطب ومعجزة محمد عليه السلام وهى القرآن كانت من جنس البلاغة والفصاحة والخطب والأشعار وبالجملة فالمعجزات متفاوتة بالقلة والكثرة وبالبقاء وعدم البقاء وبالقوة وعدم القوة ... وفيه وجه ثالث ...

وهو أن يكون المراد بتفاوت الدرجات ما يتعلق بالدنيا وهو كثرة الأمة والصحابة وقوة الدولة فاذا تأملت الوجوه الثلاثة علمت أن محمدا صلى الله عليه وسلم كان مستجمعا للكل فمنصبه أعلى ومعجزاته أبقى وأقوى وقومه أكثر ودولته أعظم وأوفر ...

القول الثاني : — ان المراد بهذه الآية محمد عليه السلام لأنه هو المفضل على الكل وانما قال ورفع بعضهم درجات على سبيل التنبيه

والرمز كمن فعل فعلا عظيما فيقال له من فعل هذا فيقول أحدكم أو بعضكم ويريد به نفسه ويكون ذلك أفخم من التصريح به وسئل الحطيئة عن أشعر الناس فذكر زهيرا والنابغة ثم قال ولو شئت لذكرت الثالث أراد نفسه — ولو قال ولو شئت لذكرت نفسى لم يبق فيه فخامة . فان قيل المفهوم من قوله ورفع بعضهم درجات هو المفهوم من قوله تلك الرسل فضلنا بعضهم على بعض فما الفائدة فى التكرير وأيضا قوله تلك الرسل فضلنا بعضهم على بعض كلام كلى وقوله بعد ذلك منهم من كلم الله شروع فى تفصيل تلك الجملة وقوله بعد ذلك : ورفع بعضهم درجات اعادة لذلك الكلىّ ومعلوم أن اعادة الكلى بعد الشروع فى تفصيل جزئياته يكون مستدركا والجواب ... ان قوله تلك الرسل فضلنا بعضهم على بعض يدل على اثبات تفضيل البعض على البعض فاما ان يدل على أن ذلك التفضيل حصل بدرجات كثيرة أو بدرجات قليلة فليس فيه دلالة عليه فكان قوله ورفع بعضهم درجات فيه فائدة زائدة فلم يكن تكريرا ...

ولا تنس خصوصية حضرته صلى الله تعالى عليه وسلم فى الاسراء والمعراج وأنه تعالى لم يسر بأحد من اخوانه المفضلين من الأنبياء المرسلين وأهمها المعراج حيث كان فرض الصلوات الخمس فوق العرش الذى هو أكبر خلق الله تعالى جسما وخاصة أن جميع الفرائض فرضت فى الأرض الا الصلوات لعظم شأنها ولأنها جامعة لجميع أفراد أنواع عباد الله تعالى أجمعين مغايرة بركوعها وسجودها لجميع الصلاة المفروضة على جميع الأنبياء والمرسلين ولاشتمالها على جميع أنواع الطاعة لعباد الله تعالى أجمعين فكان الأليق بها وللمفروضة عليه أن تكون فى المكان

اللائق بها وبحضرة من تفرض عليه ، واليك تخميس العارف :

بابن عمران شرفت سـيناء وبادريس والمسيح السماء
ولك العرش موطىء ووطـاء كيف ترقى رقيـك الأنبيـاء
يا سـماء ما طاولتها سـماء

واليك ما أجمع عليه أهل السنة أن جبريل عليه السلام لما وصلا الى سدرة المنتهى وقف عن العروج وقال الى هنا المقام يا محمد هذا جبريل الملك المخلوق من النور انتهى به المقام الى سدرة المنتهى لو جاوزه لاحترق بالأنوار الشعشعانية وسميت بالمنتهى ينتهى اليها كل صاعد من ملائكة السموات وينتهى اليها كل هابط من فوق العرش فما دونه اليها لو جاوزها لاختنق فكيف بحضرته صلى الله تعالى عليه وسلم جاوز كل ذلك وهو بشر هل بشريته تعادل أى بشرية ولو عيسى عليه السلام المخلوق عن ملك وبشر اللهم صل عليه بقدر حبك فيه صلاة ترضيك وترضيه عدد كمال الله وكما يليق بكماله وعدد انعام الله وافضاله يعنى صلاة لا منتهى لها كما أن كمالك وانعامك لا منتهى لهما آمين .

((تم الجزء الثالث))

(ويليه الجـزء الرابع . أوله : باب كيف تدون الدين الاسلامى)

فهرس الجزء الثالث

من كتاب فيض الوهاب

الموضـــــوع

صفحة

		صفحة
الفصل الرابع	: في تعريف الصحابة والتابعين لهم ومن تبعهم الى يوم الــدين	٣
البــاب الرابع	: في الرد عليهم في الشـبهة الثانية في معرفة سيد العالمين وفيه فصول	١٩
الفصــل الأول	: فيادعائهم أن حضرته صلى الله تعالى عليه وسلم بشر كالبشر العــادى الخ	١٩
الفصل الثاني	: في توضــيح الرد عليهم ..	٣٢
الفصل الثالث	: في نسبة الأفعال الى الموجودات	٤١
الفصل الرابع	: في حكمة وجود الموجودات	٤٧
المسألة الأولى	: بيان كيف تطور مبدأ الحوادث للموجودات	٥٠
المسألة الثانية	: في معرفة اسم تلك الحقيقة وما هي ؟ ومن بحث عن معرفتهــا	٥٤
المسألة الثالثة	: الكلام على هذه الحقيقة عند علماء الاسلام ..	٥٥
المسألة الرابعة	: معرفة اسم تلك الحقيقة باجماع علماء الاسلام ..	٥٧
المسألة الخامسة	: محمد بن عبد الله صلى الله تعالى عليه وسلم	٥٨
الفصل الخامس	: في اقامة البرهان العقلي والنقــلي على أن حقيقته صلى الله عليه وسلم حقيقة لجميع حقائق الموجودات	٦٢
الفصل السادس	: في معرفة بدء حقائق الموجودات قبل خلق الأرضين والســموات	٧٤
المسألة الأولى	: قول الناس في سيد العالمين صلى الله عليه وسلم	٨٥
المسألة الثانية	: الخلاصة غير خاف على ذوى البصائر النيرة أن الله تعالى جعل كل خارج عن اجماع المسلمين أعمى البصــيرة الخ	٩٣

صفحة

الفصل السابع : فى معرفة كيف كان صلى الله تعالى عليه وسلم أول خلق الله مع كونه آخر رسل الله ٩٨

المسألة الأولى : بيان تطور المخلوقات وبيان أفضلهم .. ١٠٦

مسألة تجب معرفتها ولزاما علينا بيانها ولا يعقلها الا العالمون ولاينكرها الا من قصر عقله عن ادراكها ١٠٨

المسألة الثانية : فى الخلاصـــة الخ ١٢٣

الفصل الثــامن : فى كشف الاســتار عن حال الضالين فيما فهموا فى معنى بشرية سيد العالمين وتنوير من أضلوهم لعلهم يرجعون الى الحق المبين ١٤٦

بعض ما قيل فى سيد العالمين صلى الله تعالى عليه وسلم من أقوال المعارضين ورد أفاضل الأمة عليهم ١٤٧

تم فهرست الجزء الثالث من كتاب فيض الوهاب